الأنفوشي

محمد عزام

رواية

مدونة ابو عبدو

S.1 7-5

الأنفوشي

رواية

محمد عزّام

ليليت للنشر
والتوزيع

محمد عزّام

الأنفوشى

رقم الايداع / ٢٢٠٨ / ٢٠١٤

الترقيم الدولى / ٧ - ٥٩ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

غلاف / سارة سليمان

حقوق الطبع محفوظة لدى الناشر

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

هيئة تحرير ومراجعة

د/ سالم ابراهيم سالم

أ / رشا زقيزق

أ/ محمود السيد

المراسلات : ٦٠ ش سكينة بنت الحسين

كفر عبده - الإسكندرية

ت : ٠١٢٢٤٢٧٢٣٢٧

: ٠١١٤٤٥٩٥٧٥٧

Dar.lilitte@gmail.com

lilettepublishing@gmail.com

www.lilithpublishinghouse.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤن الفنية

محمد عزّام

الأنفوشى

دار ليليت للنشر والتوزيع ٢٠١٤ ط٢

ص ،سم ١٣×٢٠

تدمك /٧-٥٩-٥٣١١-٩٧٧ - ٩٧٨

رقم الايداع / ٢٢٠٨ / ٢٠١٤

الطائر الحافى

كم يُحب شواطئها .. وماءَها الفيروزيّ

وحبّات رمالها وتسابيح أمواجها.....

إلى الإسكندرية حبيبتي

(١)

في استحياءٍ نظر لقطعة المرآة على الحائط وهمس:

- ما أجمل حاجبي! ثم إلى جسده، يا لها من قوةٍ قد حان وقتها! فأخيرًا سوف يُزفُّ إلى عروسه ويُغلق عليهما باب واحد، تحسس الجاكيت ثم بنطاله الواسع، الكل متناسق، ثم نظر إلى قدميه، إلا هذا الحذاء، فقد استعاره من شقيقه سالم، حاول بقدر مايستطيع أن يجعله في صورة الحذاء الجديد، مسح يديه من بقايا ورنيش الحذاء وبلل بدلته بماء الورد، ثم التفت حول نفسه، تنبه إلى صوت شقيقته من الخارج تحثه على الخروج فقد حضر المأذون، كان واثقًا أن هذه الزيجة رابحة، فزوجته من عائلة ما زالت تحمل علامات الثراء من أراضٍ مشتتة بين أقاليم وجه بحرى، ورصيدٍ لا بأس به من المال، كان كل ذلك يمنحه الطمأنينة والأمن، فإن عمله في حرفة النجارة ما زال عمل موسمى ينتعش ثم يخمد أوقات كثيرة، فلا مانع أن يأكل من ثروتها حتى يأتيه الفرج؛ نظر مرةً أخرى إلى

تناسق ملابسه، كان ما يحزنه.. هذا الحذاء، فالناظر إليه.. يعرف من أول نظرة أنه حذاء مستعمل، أصوات الزغاريد تقترب. فتح أخيرًا باب العوامة استقبل التهاني والمباركة، التف حوله أصدقاؤه وأبناء عمومته، فهم لا يحضرون إلا في اجتماع عرس أو توديع متوفي إلى مثواه بالقبور، جلس يسامرهم ويضحك مختلسًا النظر إلى حذائه المختبئ تحت مقعده عسى أن لا يراه أحد، كانت هناك عينٌ تراقبه سالم شقيقه صاحب الحذاء، كان يخفي ابتسامته وقد فهم حركات شقيقه بمحاولته إخفاء قدميه تحت المقعد، تمت مراسم الزواج، وانطلقت الزغاريد من النساء، بدأ العرق يتساقط في ظهره متجهًا إلى مؤخرته، أمسك بيد عروسه فائزًا بها والتي ستكون له سندًا في شقائه في هذه الحياة، تقدمت أمامهم الراقصة تزفهم، سلط بصره على جسدها الممتلئ لحمًا وشحمًا وأنوثة تفوح من نهديها وشفتاها الغليظتان.. كل شيء كان يهتز بجسدها، وتعجب على طاعتها مقابل ما تبعثر من خصوصيتها على الجميع بنصف ريال فضة. دفعه ابن عمه محمد أفندي زوج شقيقته جميلة، صاحبة فكرة زواجه من هذه العروس الثرية، بنت صاحب الأطيان.. الراحل من الحياة وشقيق واحد متزوج.. وزوج أم.. عم العروس المتولي أمور الأموال والأطيان، انتهزت شقيقته جميلة كل هذه الظروف لتزوجه بها، أخرجته يد العروس من تأملاته براحة يدها من قبضة يده، أعطى لها الحرية انسابت أمامه على درجات السلم تلملم ذيلَ فستانها وطرحتها، فطابور المودعين بدأ يهرسه بالأقدام ابتلعت له تمنى أن تدوم هذه البسمة على شفتيها، ولكن كان يعرف جيدًا بأن هذه البسمة ستكون لها نهاية، متى؟ لايعلم، كانت هذه فلسفته التي عاش عليها

منذ قدومه إلى الحياة وفراق أبوه لأمه وزواجه من أخرى، كانت أمه تميل دائمًا إلى أهلها وعائلتها المحترمة طبقة البروليتاريا واختلافها مع زوجها والنظر إليه بأنه من طبقة أرستقراطية رغم تعثرها فما زالت تلبس هذا الرداء، كانت تفضل تناول الطعام على الطاولة القصيرة والتي تكاد تعلو بضع بوصات عن الأرض، تاركةً الطاولة العريضة العالية المزودة بالرخام الأبيض لزوجها وبيرته المثلجة بجانب الطعام بدلًا من الماء، وقد اختار هو تقديم الولاء لأهل أمه وتربعها على الطاولة القصيرة وحبه لخاله صانع الموبليا، الرجل الكادح منذ ولادته يحمل علامات الشقاء على وجهه وكفيه تاركًا جميلة وشقيقه سالم في كتلة الأرستقراط مع والده وزواج جميلة من ابن عمها محمد أفندي الرجل المترف وحبيب عمه والد جميلة.

وصل أخيرًا إلى نهاية درجات السلم، أخذ بيد عروسه مودعًا لأصحابه وأقاربه، تنبّه إلى عروسه تنظر لاهثةً، كان يعرف عن ماذا تبحث، فأم العروس لم تحضر الحفل، خالتها وشقيقها فقط وأهل حارتها حضروا للمباركة، دفعها برفقٍ إلى الحنطور المزين بأكوام من الزهور، كانت عيناها تراقب المارة تبحث عن أمها، تحرك الحنطور. ابتسمت له وأمالت برأسها على كتفه، بدأ يرشد السائق (العربجي) بين شوارع وحواري حتى وصل إلى الأنفوشي حيث منزل الزوجية، أنزلها بحرصٍ شديد، فهو يريد أن يشعرها من أول يوم أنه يحبها حبًّا كبيرًا، أمسكت بذيل فستانها لتصعد درجات السلم الأربع، فشقة الزوجية في الدور الأول، توقفت العروس، نظرت أسفل قدميها، ردّ على نظراتها أن هناك سكان يقطنون في بدروم

المنزل أسفل شقتها، أخيرًا جمعتهم شقة الزوجية، كانت الشقة مرتبة جيدًا، تركت يده وتوجهت إلى غرفة النوم، جلس هو الآخر ليستريح من عناء هذا اليوم، تذكر الحذاء خلعه بسرعة من قدميه ليخفيه عن أعين عروسه، نظر إلى الطعام على طاولة السفرة، جلس بجانبه، حاول أن يختلس النظرات إلى غرفة النوم وتردد هل يدخل أم ينتظر ليرى ماذا ستكون الخطوة القادمة، خرجت إليه ترتدى قميص نوم حريرى أظهرها في صورة صارخة الجمال، كانت مثل فاتنة من فاتنات هوليود حبيبات فراشه الرطب الخشن في مسكن أمه، اقترب منها أخذ بيدها وقبلها كما شاهد في السينما، ثم دلف إلى غرفة النوم لخلع ملابسه وارتداء جلبابه خرج وجلس إلى جوارها أخرجت أول كلماتها في مسكن الزوجية:

- الطعام لم يبرد خالتي دائمًا ترتب كلَّ شيء أحسن من أمى..

وضعت وجهها بين كفيها وهي تجهش بالبكاء:

- هي فين أمي؟!

ربت على ظهرها وبحنان مسح دموعها بظهر يديه وتشجع ليظهر لها مدى تعاطفه معها:

- ياستي أنت تعرفين أمك وظروف عمك، من يوم ما تزوجته وهي بعيدة مطمئنة بوجود خالتك بجانبك.

دلف الاثنان إلى غرفة النوم.

(٢)

مرت الأيام، كانت من أحلى أيام عمره، فهو يحاول بقدر مايستطيع أن يوفر لها أسباب الحياة الكريمة المتوسطة المستورة كما يفهمها هو، أما هي فدائمًا تشعره بأنها بنت حسب ونسب كان واضحًا في بروتوكزل المعيشة من طعام وملبس وسلوكيات وخاصة مع الجيران وأولهما جارتها الست أم حلويات والتي وضعت زوجته في موضع كاتمة الأسرار لها ولأولادها ومتنفسًا للشكوى من زوجها بائع الخضار المتجول فهي تنفذ كلمات زوجته شريفة بكل عناية واقتناع، فكم كانت تشعر شريفة بالسعادة بمدى اقتناع أم حلويات بها، أخرجته حرارة الشمس من تأملاته، أنهى احتساء كوب الشاي، حضر النادل لأخذ الحساب ليسلم الوردية لزميلٍ بعد الظهيرة نظر لطفي إلى ساعته، فقد اقتربت من الثالثة خرج معكر المزاج، أكثرمن

ثلاثة أيام مضت ولا يوجد عمل بورشة النجارة، أخذ يفكر كيف يواجه شريفة بعد نفاذ نقوده، لم يبقَ معه إلا غير قروش قليلة أسرع في السير، عازمًا على أن ينهي الموقف بمواجهة زوجته شريفة ومعرفة أحواله، وصل أخيرًا إلى المنزل وكما اعتاد ثلاثَ دقاتٍ على الباب، فتحت له شريفة تستقبله بابتسامتها الفاتنة.... أسرعت بمساعدته في ارتداءالجلباب.. نظر لطفي للطعام على المائدة، كان متنوعًا، لم تعطِ له فرصةً بالسؤال، أخبرته بذهابها إلى سوق الميدان وجاءت بخزين الأسبوع، استغل لطفي حديثها وأخبرها بأنه لم يعمل منذ ثلاثة أيام وشحيح مادة الكحول بسبب حرب الألمان وارتفاع سعره بأسعار لا تناسب صاحب الورشة التي يعمل بها واكتفاء صاحب الورشة بمساعدته هو وزملائه بقليل من القروش لحين انخفاض سعر الكحول، ابتسمت شريفة، أخرجت (الجوذلان) من صدرها وأفرغته بجانبه، كان به من المال ما يكفي على أكثر من شهر من المعيشة المستقرة. تناول يدها وقبلها انسحبت متجهة إلى غرفة الطعام أحضرت الشاي كانت جلستهم المفضلة خلف قضبان النافذة المطلة على شاطئ بحر الأنفوشي وهذه من أهم الميزات التي كان يفتخر بها بين أقاربه بمسكنه أمام الشاطئ وقصر رأس التين، ومشاهدة للملك فاروق في أوقات كثيرة خلال العام، أخذ يرتشف الشاي مختلسًا النظر إلى شريفة، كان مفتونًا بجمالها وهذا التناسق العجيب من الوجه حتى القدم، لاحظ اصفراروجهها لم تعطه فرصة للسؤال، اتجهت مسرعةً إلى الحمام، تقيأت؛ فَهِمَ أنها حامل، عادت إليه في خطواتٍ مترددة تنظر إليه تنتظر إجابته على حملها، قام بإلقاء القُبلات على جبهتها مباركًا للحمل، أخذ يرتشف

الشاي في هدوء ناظرًا إلى البحر.

هبّت شريفة من النوم على دقات باب الشقة، نظرت بجانبها لم تجد لطفي، كانت هذه عادته أن يخرج في صمتٍ، أسرعت بفتح الباب، وكانت المفاجأة أمها أم صابر وشقيقتها الخالة نرجس، رحبت شريفة بخالتها كثيرًا والتي أزاحتها في صدر أمها، أخذت تبكي في حضن الأم، قامت الخالة بإنهاء العتاب الباكي بين شريفة وأمها، بدأت تستدرج شريفة في كشف أحوال معيشتها مع لطفي، أخبرتهم بأنه عاطل عن العمل معللةً بشحيح الكحول من السوق، أسرعت الأم إلى كيسة النقود من صدرها، وضعت في حجر شريفة الكثير، ختم الصمت عليهن، انسحبت شريفة إلى الحمام.. تقيأت. عادت لترى ملامح الخبر على الأم والخالة، ومدى تقبلهم للحمل، كانت الأم جامدةً لم تبدي أي فرح على وجهها، كانت الخالة عكس ذلك. ضمتها إلى صدرها مرحبةً بهذا الخبر مطمئنة لها بسرعة حل مشكلة العمل لزوجها بإخبار صابر شقيقها بإيجاد عملٍ للطفي، فمركزه قويٌّ بالقوات البحرية، لم تنتبه شريفة وخالتها بغياب أم صابر وخروجها من المنزل، سألتها عمّن يزورها من أقارب زوجها، كان الرد موجزًا بعدم حضور أحد غير أبناء عمه سعد ومصطفى للجلوس بجانب النافذة المطلة على الشاطئ، وإعجابهم بمرور العربات الملكية إلى قصر رأس التين، انتبهت شريفة وخالتها بوصول أم صابر تحمل أكياس ممتلئة بالطعام والفاكهة، همّت شريفة وخالتها بإعداد الطعام فقد اقترب ميعاد وصول زوجها لطفي، خرجت شريفة من غرفة الطعام إلى بباب الشقة، ابتسمت فالقادمة أم حلويات ساكنة البدروم،

تحمل طبق من الليمون المخلل، علّقت أم صابر:

- طبعًا مخلل رشيدي.. حتمًا يكون معتق.

ضحكت شريفة وأمها، بينما وقفت أم حلويات، لم تعرف كيف ترد على أم صابر غير إنها ضحكت. استأذنت بالعودة إلى شقتها، ودعتها شريفة لتعود للجلوس مع الخالة والأم في انتظار عودة زوجها لطفي.

مرت الساعات ولم يحضر.. أدركت خالتها الموقف، أمرت شريفة بمساعدتها في إحضار الطعام حرصًا على ما تحمل في أحشائها والاهتمام بصحتها، قامت أم صابر بالاسترخاء ثم تبعتها أختها نرجس، جلست شريفة بجانب النافذة تنتظر زوجها. مرت ساعة أخرى ولم يحضر استسلمت للنعاس مستندةً على حافة النافذة وذهبت في نوم عميق.

(٣)

سماء صافية، هواء منعش، نوافذ مفتوحة وأخرى مغلقة، امرأة تلملم غسيلها وأخرى تنادي على بائع الفول المدمس وجارة تكلم جارتها من الأسطح. شاب ينظر مستجمعًا نظراته في صدر امرأة معلقة على جدار الشرفة غير عابئةٍ بمنظر صدرها وبروزه. كان لطفي يشاهد هذه اللوحة من خلال جلوسه في مقهى سوق الترك، خلف شارع فرنسا، فهي المركز الرئيسى لأصحاب مهنته، نظر إلى كوب الشاي اقترب على الانتهاء.. نظر إلى ساعته كانت عقاربها تقترب من الخامسة مساءً، انتبه لخلو المقهى من العاطلين أمثاله ولم يتبقَ إلّا هو، لم يفكر في العودة إلى المنزل.. أخرج قطعة القماش أخذ يمسح وجه ليس من التراب، بل من الدموع فقد بدأت تنساب من عينيه رغم محاولته صدها، ولكن لا فائدة، تناول كوب

الماء، ابتلع قطرات قليلة عسى أن تأخذ مرارة الأسى.. نظر إلى المارة مرة أخرى، كانت المفاجأة، خاله قادم نحوه.. أراد أن لا يلتفت إليه ويمر دون أن يلاحظه، فهو مثله عاطل عن العمل لنفس السبب شحيح الكحول من السوق، بادره خاله بالتحية، ثم جلس بجانبه في صمتٍ، أسرع النادل إليهم، أمره لطفي بإحضار كوب من الشاي.. بادره خاله:

- بدون سكر

ابتسم لطفي لخاله:

- حتى يا خالى السكر والحلاوة لا تلزم ولا في الشاي..

ضحك الخال وأمسك بيد لطفي وقبض عليها بشدة:

- يدك هذه تأتى لك بالسكر والخير بدلًا من الجلوس في المقهى، وهل أنت مبسوط على هذا الحال؟!

شرح له لطفي عدم رحمة المعلم صاحب الورشة بأحواله هو وزملائه، وموقف زوجته شريفة وتعاونها معه في أعباء ومصاريف المنزل وعدم قدرته على التصرف في أيّ شيء ينقذه ويخرجه من هذه الضائقة الصعبة، وعدم وجود حل غير الجلوس بالمقهى حتى يأتى الفرج، قطع خاله الحديث:

- أنت بعيد عن الحل ويجب أن تفكر، أنت الآن مسئول عن بيت ومصاريف والتزامات.

قاطعه لطفي:

- علاوة عن قدوم مولود في الطريق...

ضحك الخال وأكمل حديثه، بأن المسئولية أصبحت أكبر، ويجب أن تسعى لإيجاد عمل لتغطية حاجاتكم من طعام وغيره من الأشياء المهمة في حياتكم.

أحضر النادل كوب الشاي وكانت الفرصة للطفي ليسرح مع أحلامه مع شريفة والمولود القادم وهمس:

- يا ترى ماذا أحضر لى خالى من المفاجآت، نقود لا أظن فإن حاله مثلى.

كان الفارق بينه وبين خاله، أن خاله أعزب لم يتزوج وليس عليه مسئولية، فهو قادرٌ على أن يعيش بأقل قدر من المال، كما أنه من الممكن أن يكتفي بوجبة واحدة طوال اليوم مثله قبل الزواج، وتذكر كيف كان دائما يحمل في جيب بنطاله كسرة الخبز، فإذا شعر بالجوع أخرج الكسرة وتناولها مع كوب من الشاي. لاحظ خاله ينظر إليه ويبتسم، اطمئن .. فخاله يحمل إذًا أخبارًا سارة، أخيرًا تكلّم الخال:

- غدًا تسافر إلى دمياط، تذهب إلى الحاج بسيونى تاجر الموبليا، أسبوع أوشهر حتى يأتى الفرج ويتوفر الكحول بالإسكندرية وتعو .

- قاطعه لطفي وهل الكحول متوفر في دمياط؟!

أخبره خاله بأنهم هناك يعملون لكل يوم حسابه، وليس مثل أهل

الأسكندرية يعيشون يومهم فقط، فأنت جالس بالمقهى وشرب شاي ولا على خاطرك من يوم مثل هذا وقد حصل، ماذا فعلت؟

طأطأ لطفي رأسه إلى الأرض، يريد أن يهرب من مواجهة خاله، فهو أحب الناس إليه، أمسكه خاله من كتفيه وأكمل الحديث

- ياسيدي أنا أعرف، لا تريد أن تبتعد عن حضن امرأتك، لكن الضرورة لها حكمها، والأيام القادمة ستدخل على مصروفات وعلاج ودكتور وولادة وسبوع...

نظر إليه بنظرة تحدٍ وإصرارٍ على مواجهة الموقف كما أمره، قام بالاستفسار عن كيفية السفر وليس معه نقود؟ هل يعود إلى المنزل ويقترض من زوجته مصاريف السفر؟

كانت إجابة خاله سريعة، أخرج حافظة نقوده ووضع بعض النقود في يده، لم يقدر أن ينبس بكلمةٍ واحدة غير أن يشكره، وأخبره بالقيام بالسفر غدًا إلى دمياط حتى يأتي الفرج إلى الإسكندرية، أمره خالُه بالعودة إلى امرأته فإن الوقت قد تأخر، شكره مرة أخرى وودعه بالقبلات.. أسرع بالعودة إلى المنزل. وفي الطريق أخرج نقود خاله، كانت تكفي لمدة ثلاثة أيام، أحسّ بالراحة وتذكّر عدم وجود خبز، عرج إلى حارة الشارونى حيث يوجد عم محمد بائع الخبز وعم ياقوت البقال، أحضر ما يلزم، واصل السير في اتجاه المنزل، بدأ في ترتيب فكره لمواجهة امرأته وسفره إلى دمياط، وكيف يكون وقع الخبر عليها، فقد كان زواجها منه المفازَ الآمِنَ بعد العناء

والاضطراب التي كانت تعانيه من أمها وزوج أمها، كانت شريفة دائمًا تشعره بأنه قد أنقذها من عذاب الصباح والمساء من أم لاهيةٍ وعمٍّ لايريد غير أن يشبع رغباته من أمها، فهو لا عمل ولا أعمال ميراث شقيقه، والد شريفة يجلس عليه متربعًا يصرف بسخاءٍ على نزواته، وكان أول ما يبدأ به مع أمها أم صابر.. اقترب من المنزل، مسح العرق من على جبهته، فقد حان وقت المواجهة، كانت شريفة تنظر من النافذة في انتظاره، ابتسم لم ترد الابتسامة أسرعت باستقباله، نظرت إلى عينيه، وقبل أن يتكلم حملت ما معه من خبز وشاي، تنسّمَ لطفي رائحة الطعام تملأ الغرف مع طغيان رائحة اللحم المسلوق، نظر إليها وكانت الإجابة:

- خالتي وأمي حضروا اليوم وانتظرنا كثيرًا، ولكنك تأخرت، حاولت تأخيرهم وإقناعهم بالانتظار، ولكنهم أصروا على الرحيل.

اتجهتْ الى غرفة المطبخ، وتوجّه إلى غرفة النوم لخلع ملابسه، وجد أكياس الفاكهة بجانب الفراش زادت فرحته، فهناك لحم وفاكهة، أسرع بالخروج

على صوت شريفة بإعداد الطعام، نظرت إليه بابتسامةِ رضًا وسعادةٍ، فقد حضر ليذهب عنها القلقْ وتكتمل فرحتها بفرحته للطعام، خيّم الصمت عليهم مشوشًا بحركة الأيدى من المائدة إلى فم يستقبل وأسنان تمضغ، أما لطفي كان الصمت يدق بداخله أجراس السعادة، أقبلت شريفة تحمل أكواب الشاي ولكنه كسر قاعدة احتساء الشاي بعد تناول الطعام فهى لاتعلم باحتراق قلبه في صباح هذا اليوم واحتساءه الشاي بالمقهى وهو

على لحم بطنه، ذكّرها بالفاكهة عادت إليه تحمل الفاكهة وطبق الجبن المملح، استراح من وحم امرأته فهى تتوحم بقناعة وعلى قدر المستطاع وفي متناول يده، تابع التلذذ بالتهام الفاكهة، دلف إلى حجرة النوم تدور رأسه بكيفية إخبارها بسفره غدًا للعمل بمدينة دمياط، مرّ الوقت بطيئًا، أحسّ أن هذه الليلة ستكون طويلة أمسك بفراش نومه، كان من الحرير الأملس وردي اللون مزركشًا بالخيوط الذهبية،همس:

- كم يتغيب عن هذا الفراش الناعم؟! لا يعلم فالأمر متوقف على مدة العمل بمدينة دمياط.

لاحظ غياب شريفة من اللحاق به في غرفة النوم خرج إلى الصالة، كانت تبكي ... ارتبكت وقامت تبتسم له، معلنةً بحضور خاله إبراهيم وإخبارها بسفر زوجها إلى مدينة دمياط للعمل، استراح من عمل خاله وأداء مهمة إبلاغها، وأن لطفي عمله بدمياط لن يزيد عن شهر ثم العودة إلى حبيبته الإسكندرية.

استيقظ مع آذان الفجر دون أن تشعر شريفة، تناول كوب الشاي مع كسرة الخبز، ارتدى ملابسه، وقف مترددًا هل من الأفضل أن يترك لها بعض النقود؟ أخرج من جيبه ريال فضة، بهدوءٍ عاد إلى غرفة النوم متجهًا إلى منضدة تسريحة شريفة، فوجئ بجنيهات مرتبة بجانب المرآة، اطمأن وهم بأخذ بعضها، تراجع واكتفي بما يحمل من نقود خاله إبراهيم، انسحب متجهًا إلى الشارع، وقف منتظرًا الترام، ولم ينسَ أن يملأ أنفه

بالهواء المعطر بيود بحر الأنفوشي، لم ينتظر طويلًا حضرت ترام الخط الدائرى، جلس بجانب النافذة ينظر للشاطئ، كانت الترام خاوية من الركاب، تذكر أيام سفره إلى مدينة رشيد، فهى من أهم صفحات حياته وذكريات .. خاصةً في بداية عمله بحرفة الأستريجى (ملمع) الموبليا، تذكر امرأته، هل ما زالت نائمة؟ أم استيقظت لِتُفَاجَأ بمغادرته البيت وسفره.. مسح وجهه بقطعة القماش التي حاكتها له شريفة لتكون كمنزلة المنديل، انتصب واقفًا فقد جاءت محطته (محطة مصر)، أسرعت خطواته نحو موقف السيارات، حاول الالتفات إلى الجرائد المعلقة على سور المحطة، كان يريد أن يتسكع، همس:

- لماذا التردد فزوجته ترعاها خالتها وأمها وأيضا جارتها أم حلويات، فلا داعي للقلق.

واصل المسير تحت أصوات منادي سيارات الأجرة بالموقف، وصل إلى سيارة دمياط، دسّ جسده بالسيارة مستسلمًا للمجهول. ارتعشت أطرافُه هل من برودة الهواء؟ أم من برودة السفر وترك حبيبته شريفة؟ أم من عدم توفيقه بالعمل؟ أو وفاة الحاج بسيوني صاحب معارض الموبليا بمدينة دمياط؟ أم من عدم حاجة الحاج بسيونى له؟ ..تذكّر كلمات خاله إبراهيم:

- لن تمكث بدمياط أكثر من شهر ثم تعود إلينا..

اكتملت السيارة ثم انطلقت مغادرة لحبيبته الإسكندرية، داهمه النوم وكان هذا ما يتمناه، فتح عينيه فقد وصل أخيرًا إلى دمياط، فرك عينيه وبدأت

خطواته البطيئة.. متجهًا إلى محلات الحاج بسيوني متبعا لإشارت خاله بمكان المعارض. ارتعشت أطرافه كانت المحلات مغلقة، نظر إلى ساعته تقترب من الرابعة بعد العصر، تذكر أنه ميعاد الراحة والغداء، التفت حوله يبحث عن مكانٍ منتظِرًا لفتح المحلات. كان على ناصية الشارع مقهى يختلف اختلافًا كبيرًا عن مقاهى الإسكندرية حبيبته المقاعد من الخوص المجدول، قصيرة ليست لها ظهر يستند عليه الجالس، يجب على الجالس أن ينتصب في جلسته لا استرخاء بهذا المقعد، وفي هذا المقهى، كانت هذه عادة أهل دمياط حياتهم كلها منتصبة محسوبة ابتداءً من مصروف الجيب إلى إدخارهم في كل شيء، ابتداءً من حفنة الملح إلى عدة سنتيمترات من خيط الحياكة، جلس منتصبًا يشاهد النادل مرتديًا الجلباب المخطط واضعًا على رأسه عمامة تميل على أذنه اليسرى، يتايل بين المقاعد الخوص حاملًا لصينية المشروبات يرفعها في الهواء أعلى ثم ينزل بها حتى ركبتيه، ابتسم فكم يشبه النادل الفنان شكوكو، طلب كوب من الشاي أخرج من جيبه كسرة الخبز، كان الماء داخل صفيحة جبن صغيرة نظيفة بيضاء من الداخل، نظر لطفي إلى قاع الماء، كم يشبه قاع بحر الأنفوشي! يسبح فيه وجه امرأته تبتسم له، ارتشف الماء محاولًا ابتلاع وجه حبيبته، نظر إلى محلات الحاج بسيوني ما زالت مغلقة، بدأ القلق يدب في أوصاله وبدأ المجهول يفترسه، ارتعشت يده انسكب كثيرًا من الشاي على ملابسه، أخرج قطعة القماش مجففًا لقطرات الشاي من على بنطاله بقدر ما يستطيع من إزالة لون الشاي. التفت إلى المحلات، أخيرًا فتحت أبوابها، أسرعت دقات قلبه ماذا سيكون موقف الحاج بسيوني معه؟..

هل سيرحب به؟.. هل يوجد عمل في هذه الأيام الصعبة وشح الكحول؟ ارتعشت يده.. أقبل شكوكو مليًا لإشارته، كان مجاملًا للطفي معترضًا على أخذ الحساب، كان متدهشًا لموقف التلادل فهو يعرف أهل دمياط وحرصهم على كل قرش، أصر على دفع الحساب. اتجه إلى محلات الحاج بسيوني، دقات قلبه تسرع تزلزل جسده، اقترب من باب المحل.. زادت دقات قلبه وجاءت المواجهة، الحاج بسيوني يقف أمامه لم يقوَ على تحية الحاج، تفرس الحاج في وجهه وأخذ يدقق، كان لطفي في انهيار، فالحاج الآن هو طوق النجاة له. أخيرًا تكلم الحاج بسيوني:

- أنت تشبه الأسطى إبراهيم الأسترجي الإسكندراني صح؟!

رد بسرعة:

- نعم ياحاج أنا لطفي ابن اخته وهو معلمي للصنعة.

أخذ الحاج بسيوني بيد لطفي وأدخله في مكتبه رحب به، وسأله عن خاله وأحوال العمل، فهم الحاج ظروف الإسكندرية، رفع الحاج رأسه منتشيًا:

- أنتم يا أهل الإسكندرية، أحوالكم عجيبة، اللي في جيبكم مصروف وخارج، معلميتكم لم يحسبوا لمثل هذه الأيام لكن نحن كنا مجهزين أنفسنا مستعدين دخلنا على الخمارات وأخذنا الكحول، كان حلنا سريع وحل رجالة مع تجار الكحول والخمارات.. ابتسم لطفي فهم أنه يوجد عمل، فوجئ بالحاج يسأله:

- أنت معلم مثل خالك ولا مدلع في الصنعة؟

لم يعطِ فرصة للطفي للإجابة، أمسك الحاج بيده وتفرس في أصابعه:

- كلها جملكة، أصابع معلمين، لا نستعجل، عملك هو الحكم عليك.

ارتفع صوته مناديًا على الأسطى سلامة، رحب بلطفي وأمره الحاج بتسليمه قطعة موبليا لبدء الاختبار والعمل. دخل الورشة واثقًا بنجاحه في الاختبار، خاصةً بأن خاله لم يحرمه من أسرار مهنة التلميع، التف حوله زملاؤه في المهنة، فوجئ بتكرار سؤالهم عن أخبار السينما في الإسكندرية وآخر الأفلام، انتشى بالفرح فهى متعته وخاصة الأفلام الأجنبية، فهو يحفظ اسماء النجوم، تلا عليهم أسماء شارلى شابلن، فريد استي، ريتا هيواريت أخبرهم بأنه قد ترك الدراسة وهو في مرحلة متقدمة من التعليم ويعرف من اللغة الإنجليزية الكثير مما زاد من إعجاب الأسطوات به وزيادة مراسم الترحيب، تعجب عما سمعه من شح وبخل أهل دمياط وتعاملهم معه، كما أنه كلما زاد في الحديث عن السينما زادت الحفاوة به، كان حريصًا على إخفاء أسرار مهنته، لاحظ العيون ترصد عمله بزعم ذهابهم إلى دورة المياه والمرور عليه لمشاهدة ما يصنع من تركيبة من الصبغة، توقّف عن العمل، اتجه إلى الحاج بسيوني معتذرًا عن إكمال العمل، فعليه أن يأخذ بعض الراحة ثم يكمل عمله بعد انتهاء فترة العمل وذهاب زملائه، وافق الحاج بسيوني على الفور مما زاد من القلق بالموافقة بهذه السرعة. كان توقعه صحيحًا، بدء العمل بالورشة وحده لاحظ عينًا تراقبه من خلال ألواح

من الخشب بزاوية الورشة، حاول بقدر ما يستطيع إخفاء مشاهدة عمله بإعطاء ظهره للعين الراصدة غير مكترث واثقًا بإخفاء ما يحمل من أسرار المهنة.

(٤)

مرت الأيام بسرعة على لطفي، كان همه وشاغله الوحيد، شريفة وأحوال الحمل، هل ما زالت خالتها ترعاها؟ وما موقف عائلته منها؟.. أسئلة كثيرة كانت تحاصره تصرخ في جوف رأسه، ولا توجد إجابات، كان منقذه الوحيد للخروج من دوامة حيرته النظر عبر باب الورشة والتسلية بمشاهدة المارة وعلى رأسهم شكوكو النادل وهو يتمايل حاملًا للطلبات بالمقهى مرتديًا الطرطور المائل حتى أذنه اليسرى، ملفتًا لزبائنه، باعثًا الضحك بحركات المنولوج من يديه وكلماته المقطعة، أخرج منديله مسح وجهه، خرج من تأملاته بيد الحاج بسيوني تربت على كتفه، استدار مستسلمًا ليد الحاج، أخذ بيده إلى مكتبه، جلس في صمتٍ، نظر إليه الحاج وهو يبتسم يخبره بالسماح له بالعودة إلى حبيبته الإسكندرية وزيارة أهله، ويعلمه

بتوفر الكحول بها، خيّره الحاج بالعودة إليه مرحبًا به في أيّ وقتٍ للعمل عنده، لم يعطه فرصة للإجابة، دسّ في يد لطفي ظرفًا بداخله الحساب عن مدة عمله وكذالك مصاريف الانتقال من ذهابٍ وعودةٍ، إذا أراد العودة لمدينة دمياط. أعطى لطفي إجابة سريعة للحاج بالعمل بالإسكندرية، وإخباره بالسفر غدًا ضحك الحاج بسيونى، شكره لطفي على معاملته له وجبر خاطره، ثم استأذنه ليجهزَ عُدته للعودة إلى حبيبته الإسكندرية.

الساعة تقترب من السادسة صباحًا، ما زالت الشوارع خالية من المارة، نظر ناحية المقهى، شاهد شكوكو يعد المقاعد الخوص، ابتسم لحظ هذا اليوم السعيد اتجه نحو المقهى، جلس في نفس المكان الذى جلس فيه عند قدومه إلى مدينة دمياط، راجع مشترياته وأهمها أقراص المشبك المشبع بالعسل الأبيض والهريسة الدمياطى المتخمة بالزبيب وقطع جوزالهند الغارقة بالسمن البلدى، أحضر شكوكو كوب الشاي مسلطًا نظره على هذا الزبون القادم في هذا الميعاد المبكر، غصّ لطفي بصره لم يعطِ له فرصة للحديث، انسحب النادل تاركًا الجناح لكتفيه تنخفض وترتفع مع خطوات الانسحاب، أخرج لطفي كسرة الخبز من جيبه وبدأ إفطاره، لاحظ كثرة المارة ودبيب الحياة بالشارع، التقط حقائبه بعد محاسبة النادل غير عابئ بنظراته إليه، اتجه نحو موقف السيارات وبدأت رحلة العودة. أخذ لطفي يتخيل محبوبته شريفة ومنظر بطنها المنتفخ، فهى قصيرة همس:

- هذا هو حال الدنيا.

أغمض عينيه ليذهب مع أحلامه، كان الوقت يمر بطيئًا، مقيدًا يديه على صدره خائفًا أن تذهب إحداها لتصفعَ السائق على رأسه ليسرع ويطير بالسيارة، ما زال الوقت يمر بطيئًا عكس بداية رحلته إلى مدينة دمياط، استسلم للنوم، تنبه لصوت السائق بسلامة الوصول، بدا مترددًا، هل يركب الترام الدائري، أم يأخذ سيارة الأجرة؟.. فهو يريد أن يصل إلى حبيبته الأنفوشي ومنزله الهادئ في أسرع وقت، أشار إلى سيارة الأجرة، دلف بداخلها مكومًا حقائبه، نظر إليه السائق من خلال المرآة المعلقة أمامه، أمره بالذهاب إلى الأنفوشي، أخذ مراجعة حقائبه وما تحمل من هدايا وموقف امرأته شريفة بما يحمل من هدايا تمنى وجود خالتها وأمها لمشاهدة ما يملك من نقود. مرت السيارة أمام سينما الأنفوشي، نظر إلى لوحة الإعلان الكبيرة على جدار السينما، همس:

- عال فيلم لنجيب الريحاني، غدًا ندخل السينما.

أمر السائق بالتوقف أمام المنزل على الناصية المقابلة للسينما، أعطى السائق حسابه مسلطًا نظره ناحية نافذة محبوبته شريفة، كانت النافذة خالية؛ أسرع في خطواته نحو المنزل، ظهرت أم حلويات على درجات السلم، رحبت به وهي تسرع لتدق على باب شريفة، كان مسرورًا بتصرفها هذا. فتح الباب في بطءٍ شديد، أطلت شريفة برأسها، كانت شبه نائمة نظر إلى بطنها، وكما توقع منتفخةً بارزةً حتى إنه لا يرى قدميها، تراجعت أم حلويات معللةً وجود الطعام على الموقد، قام بتوجيه كلمات الشكر لها ولم ينسَ أن يخرج قرص المشبك وقطع الهريسة هدية عودته. أغلقت شريفة الباب

وكان اللقاء الحار، حب ودموع وشوق وعتاب لطول الغياب، سرد ظروف عمله.. كان منظرها مثيرًا للشفقة قصيرة وبطن منتفخة وأقدام لا تُرى ولا تقدر على حملها، همس:

- فكيف بالوليد القادم؟

تركته متجهة إلى الحمام علمت إليه تطلبه بأن الحمام جاهز للاستحمام. كان الحبيبات في ثنية الساعد تشعر بسعادة شريفة وحركاتها بين الغرف والمطبخ والحمام كأنها عروس في أول ليلة، أخبرته بحضور خالتها كثيرًا أما أمها جاءت إليها مرة واحدة كما حضر شقيقها صابر لزيارتها ومعرفته بالظروف التي تمر بها وعلمه بالحمل على ثبات اللقي. استراح بعد سماعه هذه الأخبار حتى لا يقلق حين يتركها بالإسكندرية، وزوجته شريفة، أخبرها بالذهاب غدًا إلى سينما الأنفوشي، فرحت بفسحتها المفضلة بسينما الأنفوشي، لاحظ متابعة شريفة لخطواته داخل المنزل.. تنظر مرة إلى وجهه ومرةً إلى أقدامه ثم إلى صدره، كما كانت تراقبه عند حديثه مع جارتها أم حلويات وتتساءل أهي الغيرة؟ أم الشك؟ أم الاثنان معًا؟..أم وصلتها وشاية من أهله؟ ... فهم دائمًا يسخرون منه لميله إلى أهل أمه، وعمله بحرفة حقرت من شأنه أمامهم.. من أصابع ملطخة بمادة (الجملكة) دهان الموبليا حتى أتى به هذا الحال من تنحيته من حياتهم العائلية .. أفراح .. وأعياد ميلاد ... حتى المآتم قد لا يدعى لهذا الواجب. أخرجته شريفة من مشهده الحزين بندائها إلى غرفة النوم، أراد أن يسبح مرة أخرى في مآسيه، تراجع، فرك عينيه لا يريد أن ينام، يريد أن يتمتع بمقاسمته لمنزله

متجولًا بين الغرف، كان شعوره أن هناك شيئًا يفتقده المنزل إنه المذياع، غدًا سيقوم بالشراء، ماركة فيلبس فهو أحسن الماركات....مستعمل، وفي حالة جيدة اطمأن إلى قراره، ثم دلف إلى حجرة النوم...

(٥)

السماء تخلو من السحاب، مياه بحر الأنفوشي هادئة..حتى فكر لطفي كان هادئًا صافيًا، نظر إلى السماء بابتسامته التي دائمًا لا تفارقه، كان المشاهد للطفي يقع في حيرة أمام تقاسيم وجهه لا يقدر أن يفرق بين سعادته وحزنه، لطفي الوحيد يعرف مغزاها، كان مسرورًا بالعمل الثابت في قاعدة رأس التين البحرية فقد سعى شقيق زوجته حتى ثبته في هذا العمل الدائم، واكتملت سعادته بولادة ابنته ثريا، كان وجهها يحمل خليط من الوجه المصرى والعيون الزرقاء الأوروبية والجسد الأنفوشي الأبيض، فهى تحمل جميع صفات أهله وأهل أمها وأيضًا جارتهم أم حلويات من خفة الدم واحمرار الوجه ضحك فقد قامت شريفة بإرضاء الجميع، من أهل وجيران .. انتبه إلى قطعة القطن داخل قطعة القماش المشبعة بالجملكة، واهتزاز

يخت المحروسة الملكية، كان فَرِحًا بالجلوس على مقعد الملك فاروق وتنقله بين الغرف، كان كل شيء يفوح برائحة الملك..أعاد ترتيب قطع الموبليا بعد الإنتهاء من تلميعها، مثل قطع الآبنوس القاتمة، نظر إلى ساعته فقد قاربت على الثانية والنصف بعد الظهر وعليه الذهاب إلى الورشة وتبديل ملابسه... والعودة إلى منزله، فعمله في قاعدة رأس التين ومنزله على بعد خطوات منها.. كل شيء مهيئ لسعادته.. امرأة جميلة.. عمل مستقر.. ومولودة بينهم بدون ولادة متعثرة على يد الحاجة نفوسة (قابلة بحرى المشهورة) اقترب من المنزل، كانت أم حلويات تحمل ابنته ثريا على باب المنزل، أخبرته بأن صابر خال ثريا قد حضر ليأخذ شريفة للذهاب لأداء بعض المصالح وحتى الآن لم ترجع، نظرلابنته ثريا وهى نائمة على كتف أم حلويات، كان مطمئنًا بوجود ثريا معها فهى تمتلك من الأولاد تسعة وما زالت تنتظر المولود العاشر، وحيرته بتسميتها أم حلويات ولا توجد حلويات بين أولادها!! دلف إلى الداخل، كل شيء مرتب حتى الخبز على المائدة بجانب أطباق الطعام المغطاة، فهم أن شريفة ستأتى متأخرة .. همس:

- يا لها من ذكية!

كل شيء مرتب ومعد ومستعدة له، دلف إلى حجرة النوم.. بدل ملابسه .. تناول الطعام الذى أنهاه بسرعة، فلا أحد يشاهده وكيفية التهامه بهذه الصورة الشرهة الجائعة التي لا تشبع.. اتجه إلى المطبخ أعد كوب الشاي .. جلس بجانب النافذة أمام الشاطئ ينتظر وصول محبوبته شريفة، تذكر

المذياع، بدأ البحث، توقفت أصابعه على صوت أم كلثوم تغني أنصت إليها تاركًا جحوظ عينيه عبر الشارع عسى مشاهدة حبيبته عند عودتها، بدأت الشمس في المغيب، جاء الفرج، العربة الحنطور تقف أمام المنزل، تهبط منها شريفة وخالتها نرجس مع حقيبة ممتلئة تحملها شريفة، أسرع باللحاق بهن، حمل الحقيبة، لم ينسَ أن يرحب بالخالة، هبطت شريفة إلى أم حلويات صعدت بثريا، أسرعت إلى غرفة النوم لإشباعها من صدرها، جلست الخالة نرجس تسترد أنفاسها، أشارت إلى لطفي بالجلوس بجانبها، أخبرته بمأمورية اليوم ومدى أهميتها وخاصة لزوجته، فتحت حقيبة اليد فهى لا تفارقها فهى من أهم مراسم فسحتها وخروجها، أخرجت رزمتان من النقود، وضعتهم أمام لطفي، تابعت النظر إلى وجهه حبس أنفاسه ولكن دون جدوى، فضحته قسمات وجهه بابتسامة الفرحة لهذه النقود، سردت له مأمورية اليوم وأن جزءً من الميراث قد تمّ تصفيته مع صابر شقيق زوجته وانتهاء الأمر على خير، نظر إلى نصيب حبيبته شريفة ، كانت إجابته سريعة، إيداع المبلغ بدفتر توفير باسم زوجته، عسى أن ينفع في ينتظر وصول محبوبته شريفة، تذكر المذياع، بدأ البحث، توقفت أصابعه على صوت أم كلثوم تغني أنصت إليها تاركًا جحوظ عينيه عبر الشارع عسى مشاهدة حبيبته عند عودتها، بدأت الشمس في المغيب، جاء الفرج، العربة الحنطور تقف أمام المنزل، تهبط منها شريفة وخالتها نرجس مع حقيبة ممتلئة تحملها شريفة، أسرع باللحاق بهن، حمل الحقيبة، لم ينسَ أن يرحب بالخالة، هبطت شريفة إلى أم حلويات صعدت بثريا، أسرعت إلى غرفة النوم لإشباعها من صدرها، جلست الخالة نرجس تسترد أنفاسها،

أشارت إلى لطفي بالجلوس بجانبها، أخبرته بمأمورية اليوم ومدى أهميتها وخاصة لزوجته، فتحت حقيبة اليد فهى لا تفارقها فهى من أهم مراسم فسحتها وخروجها، أخرجت رزمتان من النقود، وضعتهم أمام لطفي، تابعت النظر إلى وجهه حبس أنفاسه ولكن دون جدوى، فضحته قسمات وجهه بابتسامة الفرحة لهذه النقود، سردت له مأمورية اليوم وأن جزءً من الميراث قد تمّ تصفيته مع صابر شقيق زوجته وانتهاء الأمر على خير، نظر إلى نصيب حبيبته شريفة ، كانت إجابته سريعة، إيداع المبلغ بدفتر توفير باسم زوجته، عسى أن ينفع في السنوات القادمة، قطع الحديث صوت شريفة بالموافقة على اقتراح زوجها، اطمأنت الخالة، تسلّلت إلى الحمام، دلف هو الآخر إلى شريفة ليخبرها بدخول الليل والإمساك بخالتها نرجس للمبيت معهم، خرج قبل أن تلاحظه الخالة، فتح المذياع، بدأ البحث بين المحطات عسى الاستماع إلى ما يزيد بهجة هذا اليوم متابعًا إلحاح امرأته على الخالة بالمبيت والتي انتهت بالموافقة وذهابهن إلى غرفة المطبخ لإعداد العشاء، فاحت رائحة اللحم المحمر بالسمن البلدى، تمايل مع نسمات رائحة اللحم، أسرع بإعداد المائدة، انطلق صوت ثريا من غرفة النوم بالبكاء، استجابت شريفة إليها، جلس مع الخالة نرجس حول مائدة الطعام في انتظار شريفة، كاد أن يلتقط قطعة من الخبز.. تراجع فإن الخالة ستحسبها عليه، حبس عواطفه أمام رائحة اللحم والبطاطس المحمرة، نظرت الخالة إليه بابتسامةٍ فاضحةٍ لقسمات وجهه وخاصةً أنفه وانتفاشه أمام هذه المشهيات، مدت يدها بالبدء بالتهام الطعام، مشجعة للطفي بالبدء هو الآخر، معللة بأن مأمورية اليوم كانت شاقة عليها، تشجّع،

بدأ بتناول الطعام متجنبًا لقطع اللحم المحمر حتى تأتي حبيبته شريفة، تنفس الصعداء، انضمت إليهم لتنقذه من عذاب النظر إلى طبق اللحم المحمر.. جلس بجانب المذياع منتظرًا إحضار أكواب الشاي، حضرت شريفة تحمل أطباق هريسة العصافيري، معقبة بأمها فهي دائمًا تحضر هريسة العصافيري. دلفت حبيبته شريفة إلى غرفة النوم تبكي.. نظرت إليه الخالة نرجس مشيرة إليه باللحاق بزوجته، وقف في حيرة، كيف يبدأ الحديث مع شريفة.. كان مطيعًا للخالة. لحق بحبيبته، خرجت الكلمات منه غير ما توقع، فقد أقنعها بكلماته وتذكيرها بأنها أصبحت امرأةً مسئولةً عن أسرةٍ ولا تعتمد على أمها عليها مواجهة الأمور في بساطة وبشجاعة، هدأت وعادت إلى الصالة، كانت الخالة قد سبقتهم إلى النوم على الأريكة في زاوية الصالة. انسحب مع شريفة بهدوء إلى غرفة النوم.

(٦)

مرت أحوال لطفي بدرجة عالية من الرفاهية.. طعام ولحوم وفاكهة وذهاب إلى سينما الأنفوشي أسبوعيًا، نظر إلى ساعته اقترب ميعاد الانصراف كان يشعر بالقلق في هذا الوقت، ميعاد انصرافه من العمل، كان يشغله هذا الخاطر وهو في طريق عودته إلى منزله، همس:

- هبوط زائرين كل يوم..

سعد ومصطفى أبناء عمه للاستمتاع بشاطئ وبحر الأنفوشي، فهو مناسب لهم مشروبات وطعام بغير ثمن، فقد نشأوا معه في بيتٍ واحدٍ، بيت العائلة، إخوة له رضي أم لا يرضي. كان يسعد بحضورهم وأحيانًا تأكله الغيرة لعدم الكلفة بينهم وبين امرأته وملازمتهم له وامرأته، فقد علموا بنبأ ميراث زوجته

فلا مانع من الحضور كل يوم والسهر مع لطفي والعشاء وتناول الفاكهة واحتساء الشاي. اقترب من المنزل، كاد يطير من الفرح، ابنته ثريا تجلس على درجات السلم تنتظره..أراد مفاجأتها، لمحته وأرسلت إليه الابتسامة الملائكية، احتضنها وصعد درجات السلم.. دفع باب الشقة.. اتجه بهدوء إلى شريفة بغرفة المطبخ قطعت المفاجأة ثريا.. أطلقت ضحكاتها.. انتبهت إليهم شريفة لتكتمل ضحكات ثريا بضحكاتها.

الساعة تقترب من السادسة نظر عبر النافذة، رأي ما توقع سعد ومصطفى، أبناء عمه يقتربون من المنزل، اتجه إلى شريفة أخبرها بالزائرين، عاد إلى النافذة، نظر إلى سعد وضخامته رغم أنه ما زال طالبًا بالحقوق، أما مصطفى فهو بكلية التجارة... التفوا حول صينية الشاي بجانب النافذة المطلة على شاطئ الأنفوشي، كان لطفي مستعدًا لهذه الجلسة فقد شَحَذَ ذهنه للحديث معهم حتى لا يشعر بالفارق بينه وبينهم، فقد ترك دراسته في المرحلة المتوسطة بعد فراق والده لأمه، قطع سعد تأملات لطفي:

- شريفة لم تحضر شيئًا مهمًا.

أكمل مصطفى الملاحظات:

- سندوتشات الجبن التركى.

همس وهو يضحك:

- نعم فهي عزبة أبوكم.

اعتدل في جلسته، أشار عليهم بالإنصات، كانت شريفة تنظرمن زاوية الحجرة، نظر إليها، تراجعت بالاختفاء، نظر سعد ومصطفى إلى لطفي، اقترب منهم أكثر، أطلق كلماته:

- هل تعلموا من كان بقصر رأس التين اليوم؟!!

أشارو بالنفي.

كان في القصر الملك فاروق ومعه الممثلة كاميليا في رحلة غرام على يخت المحروسة.

قطع حديثه سعد:

- هذا حال بحر الأنفوشي، منذ أيام كليوباترا موعود بالحب والغرام.

كان تعليق سعد مثل فلنكات القطارات بالابتعاد عن الحديث عن الملك أو الخوض في السياسة حتى ولوكان عن الفاتنة كامليا، ولكن أسرع مصطفى بالحديث:

- كاميليا يهودية، وهناك كلام كثير عنها وعلاقتها بالمخابرات الإسرائيلية..

أعجب لطفي بكلمات مصطفى الساخنة ليكمل حديثه:

- وهل المخابرات المصرية جالسة تشاهد الملك ومغامراته فقط، ضروري هناك محاولات لإنهاء هذه العلاقة ولكن دون إغضاب للملك..

شارك سعد الذى انتشى لطفي فرحًا بعودته للحديث مرة أخرى.

- لابد من الدبلوماسية أن تتدخل لاستعادة الملك وعيه وهى قادرة على ذلك، لا بد أن هناك محاولات لقطع علاقة الملك بكاميليا، ولكن دون إغضاب للملك، كما أن الحرملك له دور، خاصة أن كاميليا يهودية وجميلة وفاتنة.

سُرَّ لطفي بفتح الحوار، ليشبع ذاته وأنه قادر على الجلوس بين المثقفين ومجاراتهم في الحديث، أشار سعد بفتح المذياع عسى أن يجد ما يغلق الحديث عن الملك، تركهم لطفي ليطمئن على شريفة. كانت نائمة محتضنة ثريا، عاد إلى أبناء عمه، شاهد سعدًا متأملًا للبحر وأمواجه.. سلّط مصطفى عينيه على لطفي، لم يترك له فرصة للجلوس، طلب أكواب الشاي، فرح فهذه فرصته للذهاب إلى المطبخ فهو جائع ولا بد من كسرة الخبز أو البحث في (النملية) دولاب حفظ الطعام، وجد ما يريد، قطع وشطائر الفطير ما زالت ساخنة، حمل صينية الشاي مع شرائح الفطير، لم يجد مصطفى، وجد سعد يجلس وحيدًا، أخبره بمرور بعض السائحين لحِقَ بهم مصطفى كعادته، فهو يحن إلى أهل أمه اليونانية فهو كثير الشبه بأخواله، ردّ لطفي:

- هذا شيء طبيعي على رأي ستي الحاجة (الدم يحن لسابع جد).

أكمل سعد حديثه بأن عند انتهاء مصطفى من دراسته سيرحل إلى اليونان، إلى أهل أمه، ولن تعرف أن تتحدث معه، أنا عارف مصطفى، أصله

خواجه مثل أهل أمه وهم يفرحون بذلك ويميزونه عني. تناول لطفي وسعد قطع الفطائر واحتساء الشاي، سرح سعد مع تأملاته للبحر وأمواجه.

(٧)

بدأ انسحاب الصيف، افترش السحاب بالسماء واكتملت بوادرفصل الشتاء بالبحر هياج أمواجه.. كان مناخ الأنفوشي غريبًا على شريفة، حتى أصبحت كالكرنبة هى وابنتها ثريا. بدأت العمل في حشر قطع القماش بين فتحات النوافذ المطلة على شاطئ البحر مع سد أعقاب الأبواب، كانت تفعل كل ذلك لاكتمال التدفئة للشقة ولتكون الأحوال كلها مهيأة للضيف القادم، فهي في الشهر التاسع من الحمل، تنتظر بين يوم وآخر تشريفه بالأنفوشي، انتبهت إلى دقات على باب الشقة، أسرعت إلى الباب تمسك بزيل فستانها ثريا. التقطت أم حلويات ثريا.. كان منظرها غريبًا ترتدى الكثير من الثياب، فهى نحيفة طويلة القامة شال أسود على رأسها ملتفًا على رقبتها متدليًا على وسطها، نظرت أم حلويات إلى شريفة مبتسمة على

منظرها.. اقتربت من شريفة وأطلقت آخر الأخبار:

- اليوم الخميس ستدخل عروس جديدة، زوجة ابن صاحب المنزل.

سألت شريفة:

- سعيد ابنه الأكبر؟

أمالت أم حلويات برأسها بالإيجاب، التصقت مرة أخرى بشريفة:

- عروسته من الموازيني، هل تعرفين أخت مَن؟!

أشارت شريفة بالنفي، التصقت برأس أم حلويات:

- أخت ميا بائع الحلوى.

لم تفهم شريفة ماذا تقصد بميا هذا؟ .. نفذ صبر أم حلويات بحظت عيناها، وأكملت حديثها السري:

- بائع الحشيش، خارج من بيت خالته السنة الماضية.. بدأ الغيظ يملأ وجهها بسئوالِ شريفة عن بيت خالته، هزّت أم حلويات رأسها وأوضحت الأمر إلى شريفة بأن بيت خالته السجن، خمس سنوات بداخله. اعتدلت، فهمت ما تقصده أم حلويات. سيدخل المنزل زوار مشبوهين وهذا إنذارٌ بالخطر.. ضحكت أم حلويات، اقتربت من شريفة همست في أذنها بالخبر السيئ عن العروس، إنها جميلة ولعوب ومعروفة بين رجال

الموازيني، فقد أوقعت سعيد بشباكها.. قطعت شريفة متعة أم حلويات بالسرد لتدخلها في متعة أكبر:

- إذن المنزل سيكون.

- وأول من ستبدأ بهم هم رجال المنزل.

أمسكت شريفة بيد أم حلويات:

- لطفي وأبو حلويات؟!

ضحكت أم حلويات ضحكة المرأة الواثقة، أجابت بالنفي معلنةً بأن هذا الصنف من النساء لا يكترث إليه الرجال عندنا.. أيدتها شريفة مصطنعة الثقة بزوجها، استدارت أم حلويات مصوبة بصرها إلى باب الشقة:

- العريس سعيد عنده أشقاء شباب مثل الورد .. مع امرأة لا ترحم معروفة بحبها للرجالة.

دقت شريفة على صدرها، ارتبكت أم حلويات دقات على باب الشقة. كان ميعاد عودة لطفي، أسرعت بفتح الباب، كانت في ذيلها أم حلويات مودعةً لهم. انتبه لطفي إلى خروج أم حلويات من الشقة، لم تعطِ شريفة زوجها فرصة.. أخذته إلى غرفة النوم، وضعت ثريا بهدوءٍ على الفراش، قامت بسرد تفاصيل العروس.. لم يهتم لطفي، بدأ في تبديل ملابسه، همست شريفة:

- لا فائدة بالسرد طالما هو جائع.

تناول كوب الشاي.. أمرها بإخباره عن هذه الأخبار، أخفت ابتسامتها، قامت بسرد حكاية العروس، وأطلقت لخيالها العنان في تقديم صورة كاملة عن العروس اللعوب ومغامرات هذا الصنف من النساء، لم تنسَ النظر إلى لطفي خلسةً لترى مدى اهتمامه وإلى أي مدًى سيواصل معها الحديث. طلب كوب شاي آخر، ذهبت إلى المطبخ، فهى تعرف زوجها وحبه بمشاهدة الأفلام الأجنبية، فكم وصف لها صدر اليزابيث تايلور ووجه ريتا هيواريت ورجولة كلارك جيبل ورشاقة فريد إستير. كان يحفظ أسماؤهم كأنهم أصدقاء له وأبناء حارته.. كانت سعيدة، فقد أثارت انتباهه لحديثها المشبع بالجنس، لم تصبر بصب الشاي بالكوب، حملته في البراد ومعه الكوب وعلبة السكر.. خرجت إليه.. لاحظت الابتسامة تملأ وجهه، همست:

- يا ترى هل كشف سرها وعرف مدى متعتها بالحكي عن هذه العروس اللعوب.

جلست بجانبه، تناول كوب الشاي.. بدأت في تكملة قصتها.. قاطعها بمدى حزنه على العريس الشاب سعيد وأسرته المحترمة، وأن سبب اختراق هذه العروس؟ هو أن العريس أمه متوفية، أما والده فقد كان همه وشغله الشاغل هو متابعة العمل بطاحونة الغلال، معتمدًا على أن سعيد أصبح رجلًا يمكن الاعتماد عليه في اختياره لعروسه، مكتفيًا والده بالعناية

بأخوته من زوجته الثانية، قطع الحديث أصوات بالخارج..

- أخيرًا وصلت العروس..قالها لطفي.

ولكن عاجلته شريفة:

- وصلت المتعوسة.

ضحك مشاركًا لها بالمشاهدة عبر النافذة.. كان جمعًا كثيرًا من النساء والرجال ملتفون حول العروسان، ورجل يرتدى ملابس صيادي بحري يمسك في كل يد بمديه تلمع طويلة السلاح، يمثل مشاهد معركة بالسلاح الأبيض. كانت شريفة تشاهد الرجل في استغراب. شرح لها أن هذا الرجل دائمًا يحضر ليزف أفراح الأنفوشي، فهو رجل المناسبات المشهور باسم «حلال عليه »، تركته جلست لتستريح ولتريح ما في أحشائها، فقد شعرت بضرباتٍ تعرفها، ضربات تنذر بقرب قدوم المولود. كانت ضربات ضعيفة، لم تخبر لطفي كما فعلت في ثريا، تماسكت وبدأت تعد نفسها للوضع قدرت الميعاد إنه صباحًا، رتبت ملابس المولود وأعدت ملابسها وما يلزم من أدوات داخل الحمام، أخرجت رأسها عبر باب غرفة النوم. ما زال لطفي مع مشاهد العرس، اطمأنت رقدت بالفراش، فغدًا يوم شاق وعليها أن تستعد له من هذه الليلة.

استيقظ لطفي على صوت الترام، نظر إلى ساعته تقترب من السادسة صباحًا، خرج بهدوء إلى الصالة فتح المذياع على أغنيته المفضلة (أرض

بلادي محلاها مليانة ورود)، أدار مفتاح المحطات ليكمل استمتاعه لصوت الشيخ محمد رفعت، تناول كوب الشاي مع قطعة الخبز، همّ بالخروج .. توقف بسماع شريفة تتأوه ..أسرع إليها، كانت تتألم من ضربات الطلق.. كلفته بإخبار أم حلويات، ثم التوجه إلى الحاجة نفوسة (القابلة) لإعلانها بحالة الوضع..ويذهب إلى عمله..كان يشعر بالاطمئنان هذه المرة، دسّ يده في جيبه..تحسس قطعة الخبز..تذكر الخالة نرجس فيجب إخبارها بحال شريفة، فكم عنفته في ولادة ابنته ثريا وعدم إخبارها، نظر إلى ساعته ما زال من الوقت متسعًا، توجّه إلى عم جمعة بائع الخردوات والحلوى أدار له رقم تليفون الخالة، أبلغها بحالة شريفة واللحاق بها، أصرّ عم جمعة بعدم قبول أجرة المكالمة رغم إلحاح لطفي عليه، وتهنئته بالمولود القادم...الساعة تدق الثانية عشرة ظهرًا ما زالت الحاجة نفوسة وأم حلويات مع شريفة الولادة متعثرة الخالة نرجس تفتح المصحف على سورة «يس» عسى أن يأتي الفرج متابعة لغرفة النوم، خرجت أم حلويات همست للخالة:

- إنه ولد، ولكنه لم يتحرك والحاجة نفوسة تحاول معه..همّت الخالة بالدخول إلى غرفة النوم. توقفت مع صوت بكاء المولود.. احتضنت الخالة أم حلويات..خرجت الحاجة نفوسة من غرفة النوم تبتسم متوجهة إلى الحمام. تعلقت بها الخالة، ناولتها خمسة جنيهات، فالقادم صبي ولا بد من تكريمه، دلفت الخالة وأم حلويات إلى غرفة النوم، كانت شريفة نائمة محتضنة مولودها الصغير. شرحت أم حلويات للخالة بأن المولود ملتصق بكثير من بقاياه، فقد تأخر في الخروج أكثر من يومين. شكرتها الخالة

وأمرتها بالعودة إلى شقتها فيكفي ما قدمت اليوم. فرحت بكلمات الخالة اتجهت مع الخالة إلى باب الشقة، وكانت المفاجأة أم صابر تقف أمامهم تحمل حقيبة ممتلئة بما يلزم ابنتها. سعدت بخبر المولود وكم عانت شريفة.. تركتها الخالة لإعداد الطعام فقد اقترب ميعاد عودة لطفي وإعلانه بالخبر السعيد وكذلك إطعام شريفة، فكم عانت في هذا اليوم.

(٩)

مرت الشهور وبدأ لطفي يرى علامات نفاذ النقود على امرأته، والأمر أصبح الآن مختلفًا، الطعام يطبخ «قرديحي» بدون لحم وتكرار رائحة واحدة للطعام في أيام كثيرة عنده وعند الجارة أم حلويات، كان لايهتم بل كان اهتمامه بثريا وشقيقها على، فقد بدأوا في النمو وقريبًا ستدخل ثريا المدرسة وعليه زيادة دخله الشهري، أحضر النادل كوب الشاي. قبض عليه بكلتا يديه فالشتاء قارص وخاصة بالجلوس في قهوة «أنخ» المقابلة لبحر الأنفوشي على بُعد خطوات من منزله، تذكّر خاله إبراهيم، منقذه في هذه الظروف الصعبة، ابتلع الشاي ثم خرج متوجهًا إلى خاله بمنطقة الحجارى، كانت الساعة تقترب من الخامسة مساءً، كان يعرف أين يجده، عند أمه. فالخال يسكن بجوار أم لطفي، وعليه الاطمئنان عليها خاصة

بعد زواج ابنها لطفي. عرج إلى بائع الفاكهة، أخذ البرتقال البلدي. كانت مقابلته لأمه محسوبة.. كلمات قليلة عن أحواله، أحضرت كوب الشاي مع قطعة الخبز، نظر إلى ساعته.. تقترب من السابعة وعليه الانصراف، فالخال إبراهيم لم يحضر، هَمّ بالانصراف.. تَنَبَّهَ إلى دقات على باب الشقة.. تنفس الصعداء تمنى أن يكون القادم خاله إبراهيم، وكان ما تمنّى. الخال يقف أمامه، فهم الخال وعلم أن في الأمر شيئًا، أخذ لطفي من يده.. اتجه الخال إلى مسجد المرسي أبي العباس.. جلس الاثنان على درجات السلم، فهو المكان المناسب لدراسة وضع لطفي بعيدًا عن أعين المارة والضوضاء. فهم الخال موقف لطفي وحاجته إلى العمل الإضافي. توجّه الخال ولطفي إلى حارة اليهود، كانت هناك ورش النجارة. شَرَحَ الخال حالة ابن شقيقته وحاجته للعمل الإضافي، فالعمل الصباحي لم يعد يكفي لسد حاجة الأسرة خلال الشهر، وافق المعلم سيد بعمل لطفي عنده يوميًّا بعد الظهيرة مع راحة يوم الأحد نظير مبلغ خمسة عشرة قرشًا يوميًّا، ولكن بشرط أن العمل سيكون أمام الورشة في الشارع، وذلك لتكدس الموبليا وأسطوات النجارة وزملاؤه في التاسيع. لم يعترض لطفي فقد وجد ما يسد به نفقات أولاده. دسّ الخال بعض النقود في جيب لطفي وأمره بالعودة إلى منزله بالأنفوشي. خطوات بطيئة إلى المنزل.. أقدامه لا تقدر على السير، نظر إلى الشاطئ المظلم، جلس على سور الكورنيش، بدأ يفكر.. كيف سيواجه امرأته بخبر العمل بعد الظهيرة؟.. هل ستقبل؟.. فهى معتادة على عودته من العمل بقاعدة رأس التين بقصر الملك والجلوس والتسامر عبر النافذة المطلة على الشاطئ.. أم تأخذ بحكمة (دوام الحال من المحال)؟ تناول قطعة الخبز

وبدأ المضغ، تبتسم لحاله.. فكم يشبه الشاة في مضغ كسرات الخبز.

جلس بجانب النافذة المطلة على الشاطئ منتظرًا لطعام الغداء، فاليوم الأحد ينعم بالجلوس مع أسرته.. ثريا تلعب بعروستها القماش المنتفخة بقطع القماش القديم، أما شقيقها على فقد امتطى دراجته ذات الثلاث عجلات، كل شيء قد سار بما يرضى إلا شيء واحد.. يهتز له وترتعش أطرافه كلما تذكره، جارته العروس اللعوب، أخت ميا بائع الحشيش، فكم من المرات تحرشت به على درجات السلم، وكم تفادى نظراتها وتشوقها لرجولته! أحضرت شريفة الطعام لم يهتم بهذا الصنف المتكرر من الطعام كان فكره مع المرأة اللعوب.. أراد أن يشبع رغبته بنظراته إلى امرأته شريفة، ولكن لم تثمر هذه النظرات. ذهب جمالها وظهرت علاماتُ شقاءِ الأيام وهمومُ أولادها ثريا وعلى ومواجهةُ حياةٍ أخذت تضيق.. وتذكر الملك وشهواته مع كامليا وأخواتها وبعثرة الأموال في بقاع ومشارق أوروبا وعلى طاولات القمار.. وهو صاحب أسرة لا يقدر على أن يزيد قرشًا واحدًا على دخله اليومي من ورشة بعد الظهيرة ومرتبه من عمله بالقاعدة بقصر رأس التين، بل لا يطمئن حتى على دخل الخمس عشرة قرشًا من الورشة. أخذت ثريا تداعب أذنيه، وقبض ابنه على قدميه، شعر كأنهم يحاولون تثبيته في موقع أسرته فلا يبتعد عنها مهما كانت الأحوال. أحضرت شريفة كوب الشاي، أخذت ثريا وعلي وتركته يحتسي الشاي مع سكونه.. ذهب مرة أخرى مع صورة جارته اللعوب..كانت امرأة خليطًا من الإثارة والجمال، كل قطعة بجسدها تهتز وتتحرك كالمتفجرات التي تطيح بكل من يحاول النظر

أو الأقتراب، أدار برأسه خلال حديد النافذة عسى أن يطرد ما يسيل لعابه من هذه المرأة اللعوب.. الشاطئ نائم مع غروب الشمس، النجوم تبرق في السماء.. مشهد الشاطئ يوحي بعودة الصيف إرتخت اعصابه، ذهبت اللعوب من دهاليز رأسه، بدأ يفكر في أحوال عائلته والقطيعة بينه وبينهم؛ نكايةً به لتحزبه لأمه وعائلتها. طبقة البروليتاريا الكادحة، وإهماله من العزائم والمناسبات نظر إلى أصابعه وتراكم طبقات مادة التلميع (الجملكة) عليها فكم حاول مرارًا إزالتها، ولكن لافائدة حاول العمل بقفاز ولكنه فشل، فحرفته لا بد لها أن تترك بصماتها على كفيه، انتفض من جلسة الكآبة ولكنها ما زالت تلازمه، تذكر أبناء عمه سعد ومصطفى، أين هم؟! مضى من الوقت الكثير ولم يرى أحدًا منهما، هل ذهبا بذهاب نقود امرأته؟ أم بعمله طوال ساعات اليوم؟! أم الاثنان معًا؟.. حكَّ رأسه بكلتا يديه عسى أن يذهب صداع الهموم والكآبة.. دلف بهدوءٍ إلى غرفة النوم، امرأته تغط في نوم عميق محتضنة كل من ثريا وعلي ..حاول النوم ولكن لا فائدة، لم يفلح، ترك الفراش مدّ يده ليلتحف بجاكيت العمل..اتجه إلى باب الشقة، خرج في هدوءٍ نحو شاطئ البحر، جلس في مواجهةِ منزله.. عاد إلى أيامه الجميلة مع شريفة.. ليلة عرسه.. همس:

- يالها من ليلة!

نظر إلى نافذة جارته اللعوب. كانت الأنوار مضاءةً، خيالات تذهب وتعود خلف الستائر.. أحسّ بسعادةٍ، فهو يريد أن يتسلى. نظر إلى نافذة شقته، النور خافت كما تركه، عاد إلى متابعة شقة جارته اللعوب. انطفأت

الأنوار إلا غرفة واحدة، كان يعرفها جيدًا.. غرفة النوم لم تطفئ.. يتحرك خيال خلف الستائر.. فجأةً تحركت، ظهرت جارته اللعوب عارية، كانت حركاتها مثل عارضة الأزياء، توارت بغلق الستائر.. لم يحرك رأسه يمينًا أو يسارًا.. ولكن إلى الأمام وإلى أعلى.. عسى مشاهدة خطوات الحب حتى إن كانت كخيال الظل الذى كان يشاهده ويتمتع به في أيام صباه.. ولكن الآن يشاهده بحلاوة أخرى! اختفت الخيالات.. لم يتحرك من مكانه.. كان يريد إكمال لذته، لم يفلح.. شعر بالبرد يخترق أوصاله وعليه العودة.. نظر نظرة الوداع، ولكن لا فائدة..

(١٠)

امتلأ شاطئ الأنفوشي بالمظلات، ونصبت برادات الشاي ونبتت الرؤوس متناثرة فوق سطح الماء وظهر غطاس الإنقاذ رمزي، المشهور بمنطقة بحرى وحكاياته في الإنقاذ في الصيف. أما في الشتاء، فهو منقذ لكل خاتم أو ساعة أو قطعة نقود أو فردة حلق تكون من نصيبه في مياه البحر الباردة. تناثرت العوامات البلدي السوداء الشعبية يتابعها عم أحمد فهى رأس ماله نظير تأجيرها لفاقدي الحيلة في السباحة. الجميع يلهو.. في المياه.. فوق الرمال.. تحت المظلات ماعدا ثلاثة، كانوا على الشاطئ، ولكن لهدفٍ آخر. جمع قطع الخشب المتناثرة على الرمال وبين ورش صناعة قوارب الصيد. ثريا تمسك بكلتا يديها ذيل فستانها الأمامي غير مكترثة بظهور ساقيها، علي شقيقها وصبحس ابن جارتهم أم حلويات يقذفان بقطع

الخشب في جحرها، امتلأ جحر ثريا بقطع الخشب ولتنتهي مأموريتهم بالعودة إلى المنزل، استقبلتهم أم حلويات كانت السعادة تغمر وجه شريفة. بدأت في إعداد كانون الخشب في زاوية مدخل المنزل، أحضرت أم حلويات وعاء الكيروسين..قطرات منه فوق الخشب.. اشتعل الكانون، بدأت شريفة في شواء السمك البلطى صغير الحجم الممتلئ بالبطارخ. يطلقون عليه أهل بحري بالختاني الملبس، أعطت أم حلويات لثريا وعلي وصبحى أرغفة الخبز، أمرتهم بالجلوس في انتظار أول دفعة من الشواء. كانت شريفة منهمكة في الشواء تريد أن تنهي عملها على خير قبل عودة لطفي أو حضور خالتها نرجس لترى هذا المشهد المأسوي لابنة الحسب والنسب، فقد اضطرت شريفة للاقتضاد من المصاريف من تسوية الطعام على الكانون؛ لتوفر بعض القروش غير مكترثة بزحف أدخنة النار على وجهها؛ لتدبر شراء ما يلزم من تاجر النوتة الأسبوعية، فالخالة نرجس

وأم صابر قد نفدت أموالهم بعد هروبِ زوج أمها بما لديهم من أموال..

بدأت طلبات ثريا وعلي تتراكم على شريفة وزوجها لطفي حتى اضطرت بالذهاب إلى شقيقها صابر وعرض أحوالها وأحوال أسرتها. كانت المقابلة فاترة من صابر وقاسيةً عليها من أخٍ وحيدٍ يعيش حياة رغدة، ولكن امرأته لا تشبع. قام بوداعها مع وضع جنيهين في يدها على درجات سلم الترام.. اقتربت الترام من محطة مصر، شاهدت محل العصافيري الحلواني تفوح رائحة السمن البلدي وتنتشر بين نسمات الهواء، لم تفكر في الشراء، فهناك أمور تحتاج إلى هذه النقود. وصلت أخيرًا إلى الأنفوشي، اتجهت إلى

المنزل تجر أقدامها وتحمل خيبتها من مقابلة أخيها صابر، كان الوقت مبكرًا لحضور لطفي، أرادت أن تستريح فالطعام جاهز، جلست بجانب النافذة مع دموعها.

(١١)

شهر أغسطس.. الحر يمتلك أحوال الناس.. فلتان في الأعصاب.. فلتان في ملابس النساء، كان لطفي يرى الصيف بشاطئ الأنفوشي من خلال حديد النافذة.. فستان على اللحم.. بنت بحرى تظهر مفاتنها من خلال الملاءة اللف كأنها لا تلبس شيء.. أخرى ترتدى الفستان القصير ولا شيء يحكم نهديها من التحرك والاهتزاز..همس:

- يا له من صيف!!

كانت شريفة وثريا وعلى في الشاطئ مع أم حلويات رغم إنه يوم الأحد، ولكن تحت إلحاح أم حلويات وافق على ذهاب أسرته مع أسرتها إلى الشاطئ، كانت الشقة هادئة إلا من خطوات جارتهم اللعوب، أخذ

يتسلى بمتابعة صوت خطواتها في الحمام حجرة النوم، ثم تسكن وتهدأ لتعود مرة أخرى سرح لطفي مع خياله لماذا الحمام؟ ثم حجرة النوم فزوجها لم يحن ميعاد حضوره فدائمًا يأتى متأخرًا ليلًا سكنت الخطوات تنبه بدقات على باب الشقة.. أسرع في فتح الباب.. المرأة اللعوب تدفعه إلى الداخل وتغلق الباب.. جمد في مكانه كلوح الثلج. فتحت الروب ليرى ما كان يتلصص عليه، دفعته مرة أخرى إلى الوراء، حبس أنفاسه، أراد أن يفر، عجز عن التحرك. أسقطت الروب وهجمت عليه، كانت شرسة في تعاملها معه، لم يقدر على المقاومة ولايدري كيف يتصرف، أخذت تناوش رجولته.. ما زال بارد كاللوح الثلج، أصرت على اغتصابه وأصرَّ هو على عدم إجابتها، ولكن كانت تعرف خطواتها.. أخيرًا تحركت رجولته، أخذت ما تريد، ظهر الإشباع على وجهها، مسحت شفتيها، اختبأت داخل الروب، خرجت من الشقة وهى تنظر إليه، استجاب لنظراتها، لم يقدر على التحرك من مكانه، نظر إليها وهى تبتعد.. ماذا كان يريد؟ هل الرغبة مرة أخرى أم أراد أن يضع يده على رقبتها وينهي هذا العذاب؟! أخذ يرتعش من متعته المحرمة، نهض إلى الحمام يدلك جسده بقوة، أرتدى ملابسه، خرج لايعرف أين يتجه؟ ترك أقدامه تقوده فلا حيلة له.. أخيرًا وقف أمام مسجد سيدي ياقوت العرش، كانت الشمس قد بدأت في المغيب، صعد درجات السلم، توجّه إلى الميضة توضّأ.. كانت قطرات الماء تمتزج مع دموعه، ذهب إلى مقصورة قبر الشيخ، اندسّ بين مريدي المقصورة، تساءل هل هم مثله في متعته المحرمة وحضروا للتوبة؟!

نظر إلى رجل يمسح وجهه بقضبان المقصورة النحاسية، آخر يحك ظهره. قطع الصمت إقامةُ الصلاة، أنهى صلاته وانتابه الشعور بالهدوء.. توجه إلى الأمام سرد عليه حكايته، تفرس الإمام في قسمات وجهه، ثم أخرج كلماته كطلقات المدفع:

- أنت السبب في كل ذلك.. كنت تريد هذا الأمر همس:

- يا له من شيخ! أهو مثل شيخه الراقد في المقصورة له بركات..

أكمل الشيخ:

- وعليك أن تترك هذا المكان إلى سكن آخر لتبتعد عن هذه المرأة فهى لن تتركك، أبواب السماء مفتوحة للمغفرة وأنت رجل طيب، اذهب واعزم على البحث عن سكن آخر..

شكره لطفي ومدّ يده مُودِّعًا للشيخ، كانت يد الشيخ تحمل بعض النقود دسّها في يده، أخذها لطفي دون أن ينبس بكلمة واحدة، خرج من المسجد وما زالت حيرته تمتلكه...

(١٢)

مرت الأيام على لطفي كسوط يهوى بعدد الأيام على ظهره، كان يتلوى في فراشه، عذبته متعته المحرمة. أخذ يبحث عن سكنٍ آخر دون علم شريفة، ولأول مرة يستغنى عن مشورة خاله إبراهيم.. كيف يحدثه بهذا الفعل المخزي؟! نظر من النافذة، شاهد ابنه علي وهو يلعب مع الأولاد، يرددون كلمات يتوارثها الأطفال، فكم رددها لطفي في صباه، أخذ يستمع:

- على عليوه.. ياللي..ضرب الزميرة..ياللي..ضربها قلبي..ياللي..قلبي رصاص..ياللي..أحمد رقاص..ياللي..رقاص على مين؟..ياللي..على شاهين.. ياللي..شاهين ما مات..ياللي..خلف بنات..ياللي..خلفهم تسعة..ياللي .. قاعدين على القصعة.. ياللي ..وأخويا فيهم..ياللي..عاوج طربوشة..ياللي..من كتر فلوسه.. ياللي..

توقف لطفي عند وأخويا فيهم من كتر فلوسه تذكر أخاه سالمًا، فهو ما زال عازب لم يتزوج، يسكن مع شقيقته جميلة بمحرم بك، فهى قد أمسكت بزمام أخيها لتربطه بها؛ لتستفيد من دخله الشهري لم تلفظه عائلة لطفي مثله، فقد اختار الانحياز إلى والده وترك أمه تغوص في قاع أهلها، كان له الحظ والعناية من اكتساب خبرة والده في مضارب الأرز، خرج لطفي بقراره الذهاب إلى محرم بك وطلب المعاونة مهما كان الأمر، أسرع في ارتداء ملابسه بعد احتساء كوب الشاي مع كسرة الخبز، فرح لطفي بمقابلة أخيه سالم وعائلة شقيقته جميلة تسامر مع محمد بك، زوج جميلة، فهم تربوا معًا في بيتٍ واحدٍ، انفرد بأخيه سالم.. شرح له ظروف معيشته وبحثه عن سكن آخر معللًا أن الشقة غير صحية ورطبة على الأولاد، كان سالم يستمع إليه غير مكترث، فَهِمَ لطفي أنه لن يساعده، وكان ما توقع معتذرًا بأن دخله يذهب إلى شقيقته جميلة وأسرتها، مذكرًا لطفي بولع محمد بك بمراهنات الخيل، وكثيرًا ما يعود إلى بيته خائبًا خاسرًا لمرتبه ممّا يضطر سالم بتحمل مسؤلية جميلة وأولادها، هزّ رأسه فقد أمسك أخوه بأهم الأسباب قناعة بعدم القدرة على مساعدته.. عاد إلى الأنفوشي يجر قدميه خافضًا لرأسه لايعرف كيف يتصرف استقرت قدماه في نفس المكان الذى راقب فيه المرأة اللعوب..الست مصيبة.. جلس ولكن ناظرًا إلى البحر، سرح مع أمواجه عسى أن يهتدى إلى حل، لم يمكث كثيرًا على هذا الحال، اهتدى إلى الحل، لا توجد فائدة من الرحيل إلى سكنٍ آخر، أ ليس من الممكن أن يسكن في مكانٍ آخر، وتقابله ست مصيبة أخرى؟!! لا بد من نقل حياته من أجساد النساء الغضة البيضاء والقناعة بحبيبته شريفة

والاهتمام بأولاده، فعليه أن يجاهد. أخرج ضحكاته بصوتٍ عالٍ، فلا أحد بالشاطئ..نهض وأنهى جلسته المغلقة متجهًا إلى المنزل، عمد بغض النظر عن نافذة الجارة اللعوب..كانت الشقة هادئة لم تشعر به شريفة، نظر إلى غرفة النوم، كانت شريفة منفردة بالفراش تراجع في هدوء إلى الغرفة الأخرى.. اطمأن ثريا وعلي يغطّانِ في نومٍ عميقٍ، غمرته نشوة معاشرة حبيبته شريفة، فالفرصة مهيأة له بما يحب بدل ملابسه.. اتجه إلى المطبخ أعدّ كوب الشاي مع كسرة الخبز جلس يستمع إلى المذياع.. كانت نشرة الأخبار، اهتم بالسماع فما زال يعشق السياسة وأسرارها، كان هناك بيان يُتلى، أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة بشأن ليبيا واستقلالها من معاهدة الصلح مع إيطاليا المبرمة عام ١٩٤٧م، لتصبح ليبيا دولة مستقلة ذات سيادة.. كانت التفاصيل كثيرة تخص الناحية التنظيمية، من وضع دستور وتأسيس حكومة بواسطة ممثلي السكان في برقة وطرابلس وفزان مجتمعين في هيئة جمعية وطنية، أعجب بالقرار التاريخي وتوافقه مع قراره هو أيضًا بالمصالحة في حياته مع حبيبته شريفة، أغلق المذياع.. توجّه إلى النافذة المطلة على الشاطئ، لم ينظر إلى البحر.. كان بصره مُسَلَّطًا على قصر رأس التين حيث يوجد الملك فاروق وحاشيته، وهمس:

- هل سيأتي اليوم بزوال الملك وعهد جديد لمصر؟

توجّه إلى غرفة النوم ليوفي بوعده التاريخي.

(١٣)

مضت الشهور بعد أن أوفى لطفي بوعده التاريخي مع حبيبته شريفة بغرفة النوم، لم تشعر شريفة بآلام الحمل كما كان الحال مع ثريا وعلى، رغم انتفاخ بطنها الكبير، كان حملًا سهلًا.. ولكن كان هناك شيء واحد يقلقها عدم الشعور بحركة في بطنها، كان عليها سؤال جارتها أم حلويات، كان الرد قاسيًا:

- إن من الممكن أن يكون الضيف القادم به عيوب تمنعه من الحركة.

اهتدت شريفة لكلمات الخالة نرجس، بأن في هذه الحالة، يجب تناول مزيج من الماء بماء الورد أسرعت وتناولت المزيج.. كانت تريد الخلاص من توترها، جلست بجانب النافذة المطلة على الشاطئ.. عصبت رأسها

بالمدورة البيضاء لم تنسَ بوضع يدها على بطنها مر الوقت لم تشعر بحركة في بطنها زاد توترها، ارتعشت يدها اليمنى، أحست أن كل شيء يدورمن حولها، أسندت يدها على الحائط متجهة إلى جارتها أم حلويات كانت مترددة خوفًا من حضور زوجها بائع الخضار، فهى تكره نظراتِهِ الحادةَ وتعاريجَ وجهِهِ الممتلئةَ بحرارة الشمس ولكن لا مفر. استجابت أم حلويات لندائها، أخبرتها باحتساء كوب الماء المخلوط بماء الورد ولا فائدة ضحكت أم حلويات ضحكة الواثقة بنفسها بأنها لم تضع ملعقة من السكر بالمزيج، أسرعت شريفة إلى المطبخ، تناولت المزيج. عمدت أم حلويات بإخراج شريفة من توترها، أمالت برأسها على أذن شريفة، أخرجت السر الدفين:

- الرجل الدرويش، جارنا بائع البخور والسبح تزوج من غازيةٍ من طنطا. كل يوم مشاكل وخناقات مع ست الحسن الغازية، تخرج بدون إذنه يصبحها بعلقة ويمسيها بعلقة.

انطلقت شريفة بالحديث تاركة مولودها ومشاكله إلى مشكلة الشيخ الدرويش:

- أ ليس من الكفاية علينا الست العروسة أخت ميا بائع الحشيش، يأتى الدرويش بغازيةٍ!!

هزّت أم حلويات رأسها مع مصمصة شفتيها لتزيد من إحرارها، انتفضت شريفة، أمسكت بيد أم حلويات تشاركها في الإحساس بحركة الضيف

القادم، استعادت شريفة ثقتها بالاطمئنان على ما تحمل في أحشائها وهمست:

- يكفي أجرة القابلة نفوسة.

ودّعت أم حلويات حتى باب الشقة وهي تبالغ في شكرها، أغلقت الباب، توجهت إلى النافذة المطلة على الشاطئ، شاهدت علي وثريا يهرولانِ. الخالة نرجس وأم صابر تحمل كل واحدة منهن حقيبة ممتلئة، تعلق على برقبة جدته، أما ثريا حاولت مساعدة الخالة نرجس في حمل الحقيبة، قفزت شريفة إلى الخارج لم تساعد في الحمل، بدأت بصَبِّ عبارات العتاب للخالة والأم.. هدأت بلاستماع للخالة ونبأ زواجها واستقرار أم صابر معها، جلس على بحجر أم صابر، أما ثريا فجلستها المفضلة في حجر شريفة. نظرت الخالة إلى بطن شريفة المنتفخة، لم تتفوه بكلمة، كانت لغة العيون بالعتاب على الحمل. قطع الصمت دقات على باب الشقة، هربت شريفة من نظرات الخالة لتستقبل زوجها لطفي، رَحّبَ لطفي بالخالة نرجس والست حماته كانت ملامحه فاضحة لسعادته، شاهد الحقائب الممتلئة بما لذَّ وطابَ كما سُرَّ بمكوث الخالة والست حماته عدة أيام.. انسحب إلى غرفة النوم، بدّل ملابسه، جلس مع الست حماته.. همّت الخالة وشريفة بإعداد الطعام.. كان يستمع إلى حماته وحديثها عن إرث وأملاك لزوجها بالشام ولا تجد من يعاونها.. سرح في حديثها وتذكر المثل «التاجر لما يفلس يبحث في دفاتره القديمة».. كان يومًا هادئًا غاب عنهم شهورًا كثيرة، عَلِمَ بنبأ زواج الخالة نرجس من سائق شاحنة، ودائمًا على سفر، ممّا يجعل

الخالة والست حماته في زيارات مستمرة عندهم بالأنفوشي. غمرته السعادة، فهناك مولود قادم ويجب المساعدة، اقتربت الساعة من منتصف الليل. دلف لطفي إلى غرفة النوم معتذرًا، ثم لحقت به امرأته شريفة.

(١٤)

البحر يقذف أمواجه.. طائر النورس الأبيض يداعبها، ثم يهدأ سطح الماء فيخترقها طائر النورس خارجًا بمنقاره بما رزقه الوهاب. كان المنظر يمثل لوحة طبيعية كما زاد من جمالها سقوط الأمطار لتتوحد السماء مع البحر بعيدًا عن نقصات الإنسان. هكذا كان لطفي يتمتع من وراء قضبان النافذة المطلة على شاطئ الأنفوشي بهذا المشهد الرباني .. التفت إلى شريفة، كانت جلستها توحي بمدى توترها، فهى على وشك الوضع، تذكر مفكرة الجيب فهى صندوق أسراره، أخرجها من بدلة العرس التي ما زالت شريفة محتفظة بها في كيس من القماش القطيفة، اتجه إلى النافذة، راجع تاريخ زواجه وميلاد ثريا وعلي .. قريبًا سيدون ميلاد الضيف القادم، همس:

- لماذا دائمًا مع امرأته يتحدثان عن المولود باللغة الذكر حتى أولاده ثريا وعلي؟!!

نظر إلى شريفة حدثها بخواطره، كانت إجابتها تدل على فراسة المرأة وخبرتها:

- سمعت جدتي تصف المرأة الحامل بالذكر انتفاخ الوجه وذهاب جمالها، حتى وإن كانت جميلة جدًّا، أما الحمل بالأنثى، فإن المرأة تصبح أجمل مما كانت حتى وإن كانت دميمة مع روقان للوجه ولمعان في العينين..ضحك لطفي مقاطعًا لها:

- إذن القادم ولد.

ضحكت.. ثم تحول الضحك إلى آهاتٍ متتابعةٍ فهم لطفي الموقف، أخذ بيدها إلى غرفة النوم أمسك مفكرته..سجل بالقلم الكوبيا، تاريخ هبوط الضيف المولود..للوم ..هبط إلى أم حلويات أخبرها بحال شريفة..توجّه إلى الحاجة نفوسة القابلة.

الشمس في طريقها للمغيب.. البرد قارص..عرج لطفي إلى سوق الميدان مخترقًا لشارع الحجاري ثم إلى شارع الموازيني، كانت النقود قليلة.. اكتفي بشراء الجبن الفلاحي والفجل الورور المعمم بالرؤوس البيضاء الناصعة، ثم لترين كيروسين والعبوة الهامة الشاي، لملم مشترياته ثم عاد أدراجه. صعد درجات السلم، لاحظ الباب غير مغلقٍ، خرج صوت بكاء المولود

وثريا وعلي يقفزانِ من الفرح.. يخبرانه في صوتٍ واحدٍ:

- لملوم وصل!!

خرجت أم حلويات والحاجة نفوسة القابلة يَصِفْنَ له قسمات وجه لملوم، بما تحمل صفات أهل الشام أهل حبيبته شريفة.. لم يصبر .. دلف إلى حجرة النوم، علامات الفرحة تملأ وجه امرأته خلاف فرحتها بقدوم ثريا وعلي، همس:

- إذن هذا المولود، أسعد أمه من أول يوم!!

أما هو كانت فرحته فرحتان، فهو لم يشارك حبيبته شريفة في عذاب الوضع وليس هناك مصروفات غير أجرة الحاجة نفوسة القابلة.. اغتم لطفي فلا يوجد معه غير ثلاث جنيهات، انتبهت أم حلويات إلى موقف لطفي، أخرجت خمس جنيهات، ناولتها للحاجة نفوسة القابلة والتي أسرعت بالرحيل، استأذن لإجراء المكالمة التليفونية وإخبار الخالة نرجس والست حماته.. بدأ يردد في الطريق:

- لملوم وعلي ..علي ولملوم ..لملوم وعلي..علي ولملوم..

(١٥)

جلس لطفي بورشة النجارة بقاعدة رأس التين، كان في حيرة من الهدوء الذى يحيط بالقاعدة وقصر الملك، عكس الشهور الماضية، كانت هناك رتب عسكرية وتشريفات ووزراء يرتادون قصرالملك أخرج مفكرته، نظر إلى تاريخ ميلاد ابنه للوم واليوم الخامس عشر من يوليو عام ١٩٥٢م، فقد أكمل للوم سنتين من عدة أشهر، أغلق المفكرة. مرت الساعات.. أبدل ملابسه متجهًا إلى منزله، أخذ طريق كورنيش الأنفوشي.. سماء صافية .. البحر هادئ .. أصرَّ على الجلوس أمام المنزل، لم ينظر إلى نافذة شقته.. نظر إلى نافذة المرأة اللعوب كانت مغلقة.. لم يتحمل حرارة الشمس، اتجه إلى المنزل.. كان اليوم هادئ.. أخذ في مراجعة مشاهد القاعدة وقصر الملك وزائري القصر رغم عدم وجود الملك، فشل في الوصول إلى نتيجة لما

يجري، انتبه لصوتٍ عبر النافذة، شاهد عم جمعة صاحب محل الحلويات، يقف مع بعض الرجال يلتحفون بشالات أهل الصعيد ملتفين حول الشيخ عطوة الدرويش بائع السبح والبخور ملتحفًا

بشاله الأخضر الداكن، المطرز باللون الأسود في آخره، لاتظهر غير عينيه، أما لحيته وشاربه فقد تشابك سوادهم مع لون الشال.. ارتعش من نظره الشيخ إليه. كانت نظرات الشيخ عطوة الدرويش يعرفها، فكم من أمثال الشيخ يملكون الفراسة.. تسمرت عيناه على لطفي، شعر بالبرودة في جميع أطرافه، خشى أن يفضحه ويعرف سره الدفين مع المرأة اللعوب. انتبه إلى دقات على باب الشقة، كانت أم حلويات، أشار إلى المطبخ، دهشت شريفة من التوتر الواضح بوجه أم حلويات، أمالت على شريفة وأخبرتها بالخبر الرهيب، لم تصبر، تركت أم حلويات وأسرعت إلى لطفي لتعلنه بالخبر العاجل:

- الشيخ الدرويش قتل زوجته الغازية، اكتشف خيانتها والجميع يعرف ويلتزم الصمت.. والآن يستعدون للذهاب إلى المقابر..

ارتعش قلب لطفي من نظرات أم حلويات.. نظرات قريبة الشبه من نظرات الشيخ الدرويش .. هل عرفت سرّه وما فعل مع المرأة اللعوب؟! قطع نظرات أم حلويات بالذهاب مع الرجال والمشاركة في الجنازة، اعترضت شريفة وأم حلويات اطمأن إذًا أم حلويات لم تعرف شيئًا عن مصيبته مع جارته المرأة اللعوب، وإلا كانت دفعته لمشاهدة مصيره تركهم،

ودلف إلى حجرة النوم، تمدد على الفراش سرح مع المرأة اللعوب ومتعته، راوده السؤال:

- ماذا تفعل الآن؟.. هل علمت بخبر الشيخ الدرويش مع زوجته الغازية وقتلها؟

جلس، اعتدل في جلسته، أخذ يردد:

- الغازية وليس عشيقها.

استرخى وتمدد بالفراش، أغلق عينيه وهو يردد:

- الغازية وليس عشيقها .... الغازية وليس عشيقها....

نهض كعادته مبكرًا.. توجّه إلى المطبخ، أعدّ كوب الشاي مع كسرة الخبز، انتهى من ارتداء ملابسه، قبض على كوب الشاي، جلس بجانب النافذة المطلة على الشاطئ كان منظر الكورنيش غريبًا.. قوات عسكرية مدافع تجرها عربات بدأ، يشعر باقترابه من استكمال المشهد الغامض بحال قاعدة رأس التين وقصر الملك، خرج من المنزل أسرع في اتجاه عمله داخل القاعدة، اعترضه أحد العسكر، أخرج له تحقيق شخصيته بعمله داخل قاعدة رأس التين، تركه الجندي في مكانه متجهًا إلى إحدى العربات العسكرية، تابع الحوار بين الجندي وأحد الضباط، نهره الضابط وأمر بعدم دخول أي مدني غير عسكري إلى القاعدة، حتى إن كان يعمل بها، أعاد الجندي تحقيق الشخصية إلى لطفي مرتبكًا، عاد أدراجه ولكن إلى

أين يذهب؟ ما زال الوقت مبكرًا، اتجه إلى شارع زاوية خطاب فهناك أولاد عمه سعد ومصطفى، صعد درجات السلم دقّ على باب الشقة لم يجب أحد رفع صوته بالنداء ولكن لا فائدة ولا مجيب عاد إلى الشارع ترك لقدميه الحرية وقف أمام مقهى فاروق شاهد جمع من الناس داخل المقهى يلتزمون الصمت أمام المذياع، كان بيان يتلى من صوت جاد خشن وقويّ:

- بيان من الضباط الأحرار بإعلان تنازل الملك فاروق عن عرش مصرلابنه ونفيه خارج البلاد.

انقسم الجمع إلى مؤيد ومعارض حتى وصل الحال إلى درجة المشاحنة.. أسرع النادل بغلق المذياع، خرج من المقهى منتشيًا بقدرته على ملاحظاته في الأيام الماضية وبما يدور بقصر الملك والقاعدة برأس التين، ومشاهدته لرئيس الوزراء بالقصر وتعيين وزير حربية جديد منذ أيام قلائل.. التفت إلى قلعة قايتباي ما زالت شامخة فاتحة صدرها لعرض البحر، غير عابئة بما يجرى بجوارها من أحداث، الأمواج تتلاعب من حولها، ولكن ما زالت صامدة.. نظر إلى السماء وهمس:

- ياترى هل ستصمد مصر بما يجري بها من أحداث؟!!

أعطى ظهره للبحر، كان أمامه مسجد الأباصيري.. تخطّى الشارع.. دلف إلى ميضة الوضوء، أسبغ الوضوء تناول المصحف، جلس بجانب المنبر.. كان بجانبه حلقة من الشيوخ، يتوسطهم

شيخ كبير يتحدث:

- هذا إنقلاب على الملك، ليس بثورة، فالثورة لا بد من مشاركة شعبية لها.

ردّ عليه شيخٌ شاب يكاد وجهه ينفجر من شدة احمراره:

- يا سيدى هذه ثورة.. أ ليس هؤلاء الضباط والجند من الشعب؟!!

هزَّ زملاؤه رؤوسهم مؤيدين لقوله..

قاطعه الشيخ الكبير:

- لا ليس الشعب كله قوات مسلحة، فهؤلاء الضباط على درجة من الراحة والرواتب الجيدة، إنما الذي دفعهم لهذا العمل، الدافع الوطني لما شاهدوه من الملك، قضية فلسطين، الأسلحة الفاسدة، أ ليس الملك منذ سنوات يعربد ويصرف الأموال على الراقصات الأجانب؟! .. أ لا تتذكروا كاميليا الممثلة واحتراق الطائرة بها؟!!

انفجر الشيخ الشاب مقاطعا لشيخه:

- إنها يهودية يا فضيلة الشيخ!!

تدخل شيخ آخر:

- كان الملك سيتزوجها خارج مصر!!

رد الشيخ الكبير:

- نعم، ولكن كان هناك رجال مخلصين لمصر وللملك..

ردَّ شيخ آخر:

- لكن يافضيلة الشيخ، أ ليست الملكة هى التي دبرت كل شيء من وراء ظهر الملك؟!!

أيده الشيخ:

- نعم كان من المفروض على الجيش أن يتدخل قبل الملكة وقبل أسرته، ولكن الجيش لم يتحرك إلا في وقت رأى أنه سيهان ويطرد رؤساءه وقادته؛ لذلك هذه ليست بثورة ولكنها إنقلاب عسكرى، وعسى أن يكون في مصلحة الشعب ومصلحة مصر.

استمع لهذا الحوار، وكم كانت سعادته!! بهذه التوضيحات، فقد أعطته أبعاد هذه الحركة الثورية ومدى تأثيرها على الناس، الآن يقدر أن يتكلم ويحاور، خاصة مع أبناء عمه، سعد ومصطفى.. دلف إلى الميضة، جدد الوضوء، استعدادًا للصلاة، لم ينسَ أن يمر على مقصورة قبر سيدى الأباصيري الملاصقة بالمسجد بالخارج، شاهد خادم المسجد يمسك في يده بسلك رفيع، يدخله في صندوق النذور ويخرج بعض النقود الورقية ويدسها في جيبه، انتبه الخادم لوجود لطفي وإكتشاف أمره، أرتبك لطفي ماذا يفعل؟ هل يذهب إلى الإمام ويخبره؟ لم يعطِ الخادم

فرصة للتفكير.. تقدّم نحوه.. شرح للطفي أنه في حاجة شديدة إلى بعض النقود لأسرته ولابنه المريض، ولا سبيل غير ذلك التصرف، وكله خير في الصندوق خير أو في يد المحتاج مثله. دسّ في جيب لطفي بعض النقود وانصرف.

(١٦)

«ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد»

لم ينسَ لطفي التغني بها رغم مرور ما يقرب من أربع سنوات على الثورة أو الانقلاب.. كما قال الشيخ، كان في طريق العمل بقاعدة رأس التين بقصر الملك.. كانت توجهات الثورة أن العامل يأخذ مكانه ومكانته في المجتمع، نظر إلى أصابعه تكسوها طبقة «الجملكة» طلاء الموبليا، شعر بالسعادة.. فأخيرًا أصبح لهذه الأصابع بصمة في المجتمع، نظرة عائلته تغيرت، حتى أصبح هناك تواصل متواضع معها، فهو ما زال فقيرًا كادحًا لتربية أولاده.. وهم أغنياء.. حتى أنه علم أخبار لقاءات وأعياد ميلاد، مع التوصية بتجنب حضوره بينهم.. كان لا يهتم بذلك، حيث همه أن يكون على ودٍّ مع العائلة مهما كان الأمر.. هكذا سمع الشيخ الإمام يوصي بصلة

الأرحام، أنهى تلميع الموبليا بمكتب رئيس الجمهورية، بقصر رأس التين كان المشهد مختلفًا عن الماضي فلا رائحة خمور ولا روائح نسائية، كل شيء كان منظمًا، بدلت صور الملك وأسرته بصورة الرئيس، كما أخذت حجرات القصر حظَّها من الحداثة.. أزيل رمز التاج من على الحوائط، وعلقت صور زعماء مصر..أحمد عرابى.. مصطفى كامل.. محمد فريد.. سعد زغلول.. تأهّب لطفي للعودة، فقد أشرف ميعاد العمل على الانتهاء، لم ينسَ أن يأخذ قطع الجبن «النستو» من زملائه البحارة، فهم يعرفون مدى محبة لطفي لابنه لملوم، فهو حديثه المفضل معهم، وأن هذا الغلام سيكون له شأن كبير ومهم. كان واثقًا من حديثه عن لملوم، فدائمًا يراقب تصرفاته مع أمه شريفة، وتميزه بين صبية الشارع وأبناء الحارة، فدائمًا يتولى زمام القيادة، منتحلا أدوار الفرسان.. يدفس رأسه داخل قرطاسٍ من الورق مثل البطل الروماني سبارتاكوس متقلدًا بسيفه الخشبى، وإلحاحه على أمه شريفة بصنع قناع يضعه على عينيه مثل زورو وعباءته السوداء.. يجري ويقفز بين رصيف منزله ورصيف سينما الأنفوشي، كما سمح له بدخول سينما الأنفوشي في أي وقت بأوامر من الحاج إبراهيم صاحب السينما.. كما اكتسب لملوم حب عم عزت قاطع التذاكر وعم علي مديرها، الجميع يحبه ويتركون له حرية الدخول للمشاهدة المجانية، ثم يخرج للشارع مقلدًا لما شاهده من أفلام، اقترب لطفي.. شاهد لملوم يجلس على رصيف السينما، لم يلاحظ وجود والده، اقترب لطفي أكثر، كان لملوم يقبض على أغطية زجاجات المياه الغازية..السينالكو..السباتس..الصودا..الكاكولا .. يدق الأغطية بحجر ثاقبًا بمسمار في منتصف الغطاء ثقب، ثم يدككها في رباط

من المطاط، انتبه لملوم بوجود والده خلفه، ضحك لطفي، عرف ما يفعل سأله:

- أين مكر الخيط؟

أخرج لملوم المكر من جيبه، ثم وضع حلقة المطاط المدكك بأغطية زجاجات المياه الغازية حول المكر متخذة شكل إطار السيارة، قبض لطفي على يد لملوم متجهًا نحو المنزل، كانت ثريا تجلس في ركن الحجرة تكتب الواجب المدرسى، متخذة من مائدة الطعام القصيرة المستديرة، التي فضلها دائمًا لطفي مبتعدًا عن مائدة طعام أهله الأرستقراطية، بحث لملوم بين المتروكات عن عصا؛ لتكملة عجلة المكر، نهرته أمه وأمرته بالانتظار حتى يستريح والده، لم يعطها لطفي قطع متعة ابنه لملوم، نظر لملوم إلى أمه ما كان عليها إلا أن تنسحب تاركةً لزوجها مع حبيبه لملوم اكتملت اللعبة، قفز إلى الشارع، اتجه لطفي وشريفة وثريا لمشاهدة لملوم من النافذة يلعب مفتخرًا بين أصحابه. تناول لطفي وجبة الغداء، أخذ يرتشف الشاي، كانت ثريا تراقبه، ضحك مشيرًا إلى كوب الشاي:

- ماهذا؟

أجابت بكل ثقةٍ وهى تضحك:

- فاكهة الفقير..

ابتسم لإجابة ثريا والتي توارثها هو الآخر من والده.. أكمل احتساء الشاي،

خرج من المنزل متجهًا إلى ورشة عمل بعد الظهر بحارة اليهود لمحه لملوم.. نظر إليه وهو يبتعد.. كان كلٌّ منهما ينظر إلى الآخر.. فهم لطفي نظرات لملوم، أخرج قرش السلطان حسين المثقوب، التقفه لملوم متجهًا إلى عم جمعة بائع الحلوى.. سار منتشيا بسعادة ابنه لملوم..

(١٧)

جلس لطفي يحسب عمر ابنه للوم.. كان السن لا يناسب التربية والتعليم، ولكن من الممكن الالتحاق بالمعاهد الأزهرية، عرض على حبيبته شريفة فكرته، أيدته.. كان والدها يحمل العالمية من الأزهر الشريف .. وسيكون للوم عالم من علماء الدين يحترمه الناس اطمأن.. غدًا يذهب إلى المعهد الديني بجانب مسجد المرسي أبي العباس.

كان للوم يذهب إلى المعهد الديني، مخترقًا لشارع الحجاريثم شارع الموازيني، إلى ساحة المرسي أبي العباس يصل أخيرًا إلى المعهد، وسط أبخرة الفول المدمس ورائحة الطعمية بمطعم الحاج عامر أمام المعهد، لم يأبه بحقيبته الثقيلة بالكتب الدينية وقماشها العبك، المزودة بالحمالتين

يضعها فوق منكبيه، فلا يشعر بثقل ما يحمل من كتب الدين.. كان ما يقلقه هو صياحُ أمثاله من التلاميذ ملتصقين بأماتهن لايتركونهن للدخول إلىإلى المعهد يبكون، أما هو فيذهب وحده إلى المعهد... كان المعهد بيت عتيق محطم من الداخل.. درجات السلم خشبية.. الفصول تفترشها الرطوبة.. إضاءة باهتة.. واكتملت الكآبة فضيلة الشيخ يحمل قطعة الخيرزان القصيرة الغليظة مثل الشيخ، كعفريت من الجان بين يدي الشيخ صاحب النظرات المشتعلة.

كان في أول اليوم حصتان لقراءة القرآن الكريم، ثم حصتان للحفظ.. أما باقي الحصص، فلا أهمية لها غير اللعب داخل الفصل الرطب، العفنة حوائطه ينتهى اليوم. وتبدأ العودة مخترقًا حي السيالة، متجهًا إلى الكورنيش، حتى يصل إلى منزله.

كانت الأيام تمر على لملوم في بطء شديد، واكتملت بالهم الجاثم على صدره أوامر الشيخ للملوم وزملائه بالحضور باكرًا ومع كل منهم وعاءٌ وكيسٌ، فهناك معونة قادمة للأزهر الشريف سمن ولبن جاف حضر.

لملوم في الصباح مستعد لحمل الهدايا الثمينة لأمه فنجان من الزنج، أعطته له أمه على قناعة بأن كمية السمن ستكون قليلة، وكيس من الورق للبن الجاف، كانت الطامة الكبرى.. الشيخ يصب السمن للملوم لم يقدر حجم الفنجان الزنج، قطرات السمن تتساقط على جبته وجلبابه الأزرق. كان اليوم الأسود لملوم، علقة ساخنة بالخيرزان العفريت وشرر عينيه

المشتعل نارًا وغضبًا منع عن لملوم السمن واللبن الجاف. عاد مطأطأ الرأس بائسًا لا يدري بماذا يخبرهم بالمنزل، علمت شريفة بتصرف الشيخ، أخفت قسمات الحزن باحتضان لملوم في صدرها. أما لطفي كان له موقف آخر.. الذهاب إلى عائلته بمحرم بك ليستمع إلى النصيحة في استمرار لملوم في المعهد الأزهري.

كان استقبال أخته جميلة وشقيقها سالم بالسخرية بسبب إلحاق ابنه لملوم بهذا المعهد الأزهري.. نَدِمَ لطفي بالذهاب إليهم، فإنهم يتشبهون بالخواجات، يحتسون البيرة أثناء تناولهم الطعام بدلًا من الماء.. كما زاد شقيقه سالم أحضر قبعة ووضعها على أصبعه كعمامةِ الشيخ يلفها ويردد:

- زرر... زرر... زرر...

ترد عليه جميلة وزوجها محمد بك:

- زرر... زرر... زرر...

عاد لطفي غير مقتنع بهجوم عائلة محرم بك، ولكن كان قراره موافقًا لهم بإخراج لملوم من الأزهر. سرد على شريفة موقف عائلته، بادرته بالضحك فهي تعرف أهله أكثر منه....

جلس يستمع إلى المذياع .. أناشيد وطنيه .. التف حوله شريفة ولملوم .. خرج صوت الزعيم جمال عبد الناصر يعلن بتأميم قناة السويس، لم يتمالك لطفي نفسه، أخذ يصفق ويرقص. أما شريفة كانت سعيدة بالخبر. أما لملوم

فقد ألصق أذنه بالمذياع، لم يتحرك، فعل لطفي مثل الملوم، وجاء التعقيب بالمذياع أن هناك أيام صعبة على أهل مصر، انتفض الملوم وأغلق المذياع، لم ينهره لطفي.. كان همه إخراج الملوم من الأزهر.

صفارة الإنذار تعلن هجوم طيران، أصبحت الشوارع خاليه من المارة رجال الدفاع الشعبي تأمر بغلق شيش النوافذ، أغلقت المدارس على التلاميذ لا أحد يخرج كان هذا حال معهد الملوم، ولكنه كان مصرًا على الخروج، فالحال بالخارج أفضل من داخل المعهد حتى ولوكان هناك الموت ينتظره!! فتح باب الفصل بهدوء، نظر إلى ممر درجات السلم، لا أحد باب المعهد لم يغلق.. هبط بخوف يمتلكه، لم يعترضه أحد من الشيوخ، التصق بالحائط وصل إلى سلم الدور الأول، لم يجد أحدًا، هبط درجات السلم، كان بينه وبين باب الخروج خطوات قليلة والخوف من عفريتة الشيخ ونظراته النيرانية أخيرًا خرج من باب المعهد.. بدأ يجري .. لم ينظر خلفه، وصل إلى نهاية شارع الموازيني.. دلف إلى شارع أبو نواية..

اعترضه رجل الدفاع الشعبي، قبض على يده، كان الملوم يريد أن يفر منه خوفًا من إعادته إلى المعهد وخيرزانة الشيخ.. أدخله في حوش أحد المنازل، وجد أطفال ونساء، الجميع يقفون في صمت، فحص الملوم النساء عسى أن يجد أمه، كان أزيز الطائرات يملأ السماء.. ودوي المدافع تزلزل الأرض، اهتزت الأرض بصوت انفجار وتكبيرات تأتي من ناحية البحر، دلف إليهم رجل من الدفاع الشعبي يخبرهم بسقوط طائرة من سلاح العدو بمنطقة الطابية بجانب عسكر السواحل ويتم البحث عن قائد الطائرة،

انطلق صوت صفارة الأمان بانتهاء غارة العدو.. خرج لملوم، لم يصبر أخذ يجري ناحية منزله، تذكّر الطائرة، ولا بد من مشاهدتها.. كانت محاطة بعسكر الحراسة، منفصل ذيلها عن كابينة القيادة.. وعلى بُعد خطوات شاهد مروحتها، أعجب من حجمها الكبير، فهو يراها صغيرة في السماء، أسرع بالعودة إلى المنزل كان هناك جمع من الناس يقفون تحت نافذة منزله يتحدثون .. شعر بالفخر فإن جدته قد أرشدت عن قائد الطائرة، يسبح ويغطس في ماء البحر، على مقربة من جزيرة بحر الأنفوشي المشهورة.. قفز على درجات السلم، يريد أن يحتضن جدته، تراجع فقد كان شقيقه علي متربعًا على حجرها.

(١٨)

بحر هادئ .. هواء منعش..شمس ساطعة، هواء يملأ الرئتين برائحة اليود.. ميزة بحر الأنفوشي...بحري تسكر وتسحر الغريب والقريب.. وهذا سر جمال الأنفوشي.. أهلها لا يعرفون العنصرية فهي تستقبل جميع الأجناس .. من باب (عشرة) بالجمرك..سائحين أشكال وألوان، تدخل من شارع النصر، وتعبر إلى بحري، لمشاهدة مقر الأنتيكة بأثاره الرومانية والبيزنطية ومقابرها الرخامية، ثم يمروا أمام بيت الملوم، للذهاب إلى قلعة قايتباي والميناء الشرقي، كان يستقبلهم الملوم مع أصحابه بكلمتين يحفظهما كل أولاد الأنفوشي:

- جف مي ون سجرتو..

يضحك السائحين .. وتبدأ الهدايا للصبية، وتنتهي بالتبادل مع أصحابه، يبدل كل واحد بصنف من السجائر، وينتهي الأمر، لملوم وأصحابه يحملون كل واحد منهم نوع واحد من السجائر.. يقود لملوم المسيرة بأصحابه إلى سينما الأنفوشي، وتبدأ المقايضة مع مدير السينما وقاطع التذاكر، بعض أصحابه يدخلون السينما، والبعض يأخذ النقود إلا لملوم، يأخذ النقود من أصدقائه الكبار عم عزت وعم علي ويدخل السينما.. كان حظه دائمًا في الأفلام الأجنبية.. يشاهدها ثم يتقمص أبطالها، فتحت صالة السينما أبوابها بانتهاء العرض، أسرع لملوم، فقد قرب ميعاد عودة والده، لم يجد غير أمه، فثريا وعلي لم يحضرا بعدُ من مدراسهم ،تمدّدَ على حافة النافذة المطلة على الشاطئ.. ارتبكت الرموش وارتعشت.. ذهب مع النوم، ليدخل في فيلم آخر من أين أتى؟ من مترو جولدن ماير؟.. أم من كولومبيا؟.. أم من استديو مصر؟ لملوم يجلس بين أصدقائه يقرؤون الجرائد على درجات السلم طائرات وجيوش.. شقيقه علي في معركةٍ يُجرح، شقيقته ثريا تبكي على زوجها، جيران يودعون موتى، جنازة كبيرة وعظيمة يخرج لها كل أهل مصر إلا هو، فقد حبسته أمه شريفة ومنعته من الخروج إليها، يلحق بشقيقه علي في معركةٍ كبرى، تُرفع أعلام مصر، تحتفي الجماهير بالجنود، ثم جلوسه بمكتبٍ كبير بين يديه أوراق كثيرة وجرائد تظهر فيها صورته، طلقات، يقتل قائد يسمى بالشهيد ينعيه لملوم وأصحابه يتفرقوا، يلعب صبية صغار بين قدميه، لسعته حرارة الشمس .. انتفض من أحلامه، وجد والده يخلع ملابسه في غرفة النوم.. دلف إليه لملوم، جلس على ركبتيه، حكى له الفيلم اللملومي، ابتسم لطفي، قبّله وضمه إلى صدره، نصحه

أن يكون هذا الحلم سر بينهما ولا يقصه على أحد.. وافق دون أن يفهم لما هذا التكتم!! قفز متجهًا إلى الحمام، أما لطفي.. نظر إلى البحر ورفع رأسه إلى السماء.. دعا للملوم دعواتٍ لا يعلمها إلا هو، ورب السماء.

شهر أغسطس وحرارة الشمس الساخنة.. والأجساد العارية.. طابور الحب على أشُدِّه.. ازدحام لا يفرق بين حلال وحرام ولا سن.. الجميع منتظر دوره في امتلاك أوفعل ما يحب ويهوى بشاطئ الأنفوشي أو بداخل السينما الأنفوشي .. بين أمواج البحر .. بين مقاعد السينما والظلمة الملتهبة .. أو تحت درجات السلم .. كان هذا ما يحبه لملوم أنسب مكان .. صخرة من الزلط الأسود ذات الشكل المستطيل، مرتفعة عن الأرض بمقدار يسمح للجالس أن يأخذ راحته في وضع قدميه في راحة ويسر، كانت الصخرة الأريكة تأخذ ثلاثة للجلوس عليها، تقابلها صخرة من الزلط الأبيض لا تسع لأكثر من جليسٍ واحدٍ إذا وقف لملوم ورفاقه لاتصل رؤوسهم إلى سقف درجات السلم.

كانت (الحناية) تحت السلم يجتمع بها لملوم العربي ابن الست أم جرمانية بالمنزل الملاصق لبيت لملوم، وزغلول ابن الست أم نوال جارتهم خلف سينما الأنفوشي، وسرور جار لملوم صاحب الخطوات المزعجة فوق سقف لملوم، جمعهم تقارب سنوات عمرهم كما جمعتهم الغواية تحت السلم مع بنات الجيران حلويات سونة، ونجية صاحبات الأجساد البيضاء المنتفخة رغم الفارق بينهن وبين لملوم ورفاقه.. يبدأ الحب المتواضع تجلس حلويات وسونة ونجية على الصخرة السوداء يجلس أمامهن لملوم على الصخرة

البيضاء، يقف زغلول على مقربة منه، أما العربي وسرور فهم يسدون ممر الحناية تحت السلم بأجسادهم.. يقف للوم يده اليمنى في جيب جاكيت البيجامة، على وجهه نظارة شمسية بعين واحدة، يده اليسرى تعبث بين ساقي حلويات، بعد أن أسقطت سروالها مقيدًا لساقيها بعدم الحركة.. سونة ونجية ينظرن إليها ينتظرن دورهن في هذا الكشف العابث بين يدي الطبيب للوم العابث غير عابئين بنظرات العربي وسرور، أما زغلول فهو مراقب لممر درجات السلم، تلتهب حلويات، ثم تلتهب سونة ونجية مع العربي وسرور، ويأتي دور زغلول ليلهب عواطف حلويات مرةً أخرى ويزداد فتح وفرشحة ساقيها تاركةً يد زغلول تعبث.. تنتهي غواية الأطباء من الكشف العبثي، ثم يتفرقون عائدين إلى منازلهم في خير وسلام وبدون إزعاج أو قلق لهذا الحب العابث. كان هذا حال للوم ورفاقه، لايدري أحد من أهل الأطباء الصغار والمرضى صاحبات الأجساد البيضاء الغضة المنتفخة.. كانت التمثيلية العبثية تنمو بينهم مع مرور الأيام لتأتي بدركات أخرى من الحب العابث الذي يشغل تفكير للوم.. كثيرًا ما يشاهد بسينما الأنفوشي المرأة وهي بين أحضان الرجل يطبع قُبلاته على شفتيها، كان لايفهم ماذا يفعلانِ حاول أن يسأل، لكنه تراجع بعد أن شعر أنه يخص الكبار، فدائمًا تشتعل صالة السينما بالصفير والتصفيق عند مشاهدة التصاق الفم بالفم.. كان يشعر باللعاب يزيد في فمه، وهذا ما دفعه إلى حلويات دون أن يصحب رفاقه في عيادة تحت السلم، رفعت حلويات جلبابها وأسقطت سروالها، لم يضع للوم يده بين ساقيها، أمسك كتفيها وألصق شفتيه بثغرها، استجابت حلويات له، وألصقت هي الأخرى شفتيها..

شعر لملوم بحلاوة شفتي حلويات التي أطبقت بإسنانها على شفتيه.. تراجع دافعًا بقبضته إلى صدر حلويات لترتطم بحافة الصخرة السوداء، لم يأبه للألم كان الخوف يمتلكه، تورّمت شفتاه، وقف بجانب سينما الأنفوشي.. ماذا يفعل؟.. يتوجه إلى المنزل؟ .. أم ينتظر زوال التورم؟..نظر حوله، اطمئن لم يجد أحدًا من أصحابه.. كما أن ميعاد والده لم يحن بعد، هدأ قليلًا تحسس شفتيه لم يتمكن من معرفة زوال التورم.. اتجه إلى باب السينما كان عم عزت قاطع التذاكر يقف مستغرقًا في تدخين سيجارته.. لم يلاحظ لملوم، تردد لملوم ماذا يفعل مع هذه الشفاة؟ يا ليت له شارب مثل والده ليخفي به شفتيه! تشجع متجهًا إلى حمام السينما لمشاهدة وجهه في المرآة، قفز على حافة الحوض، قبض على يد صنبور المياه محدقًا متفحصًا لشفتيه أحسّ بالراحة فقد هدء التورم، بدأ بالنزول من على الحوض قابضًا على صنبور المياه لتندفع المياه على رأسه وملابسه، انحرفت قدمه ليستقر في خليط من الماء المتسخ، حاول النهوض فشل. اكتمل اتساخ ملابسه، زحف إلى زاوية الحمام مبتعدًا عن اندفاع المياه.. انتصب واقفًا لا يدري ماذا يفعل وكيف يمر دون أن يراه أحد؟ شاهد شاشة العرض.. كان الفيلم على الانتهاء.. فهو الذى شاهده بالأمس وها هو البطل يُقبّل حبيبته، أشاح بوجهه متحسسًا لفمه، اندسّ وسط رواد السينما، أسرع بالخطى اقترب من منزله..ارتبك، الست أم حلويات تقف على باب المنزل.. كان الحظ معه لم تلاحظ دخوله الصامت، دفع بيده باب الشقة، دلف إلى الداخل، لم يجد أمه، اقترب من باب الحمام، كانت أمه تجلس القرفصاء على مقعد الحمام ذي الأرجل القصيرة الملتحمة بعضها ببعض، تضع بين

أرجلها طست الغسيل مرتدية جلباب الغسيل الممزق فهو بالكاد يستر القليل من جسدها الأبيض الناعم، استحى من منظر أمه أراد أن يعود في هدوء.. اصطدم بنداء أمه.. استدار إليها.. نظرت إليه.. رفصت الطست بقدميها، تفحصت ملابسه المتسخة المبتلة، عاجلها بإجابته السريعة والمرتبة، اصطدام شفتيه برأس صاحبه سرور ابن الجارة امرأة سعيد التي تكرهها أمه وجارتهم أم حلويات.. كان يريد سد أي منفذ للتحري عن صدق كلامه، أمسكت بذيل فستانها، مسحت يديها، تحسست ملابسه المبتلة، وقف صامت، لم يقدر على أن يزيد في كذبته، فهو يعرف أمه ومدى فراستها وهل قبلت إجابته عن شفتيه ليخبرها عن اتساخ ملابسه!! سحبته من يده إلى غرفة النوم، نزعت ملابسه المتسخة، عاجلته بالتقدم إلى الحمام في صمت، وقف أمامها كيوم ولادتها له، لم يأبه لحاله، كان همه أن لا تعاود السؤال عن شفتيه، أنهت استحمامه.. تركته لإحضار الملابس النظيفة من غرفة النوم، كانت فرصته ليتحسّس شفتيه.. ما زالت شفته السفلى منتفخة، لم ينتبه لوجود أمه تراقبه بجانب الحمام، أكمل ارتداء ملابسه في صمت، أعاد كذبته مرة أخرى مع صاحبه سرور ووقوعه على الأرض واتساخ ملابسه، لم تأبه بسرد حكايته. جلست القرفصاء واضعة طست الغسيل بين فخذيها، دلف هو الآخر خارج الحمام..اندس في فراشه يستريح من عناء عضة حلويات.

(١٩)

انتبه لطفي ليد ابنته ثريا توقظه من نومه، أخبرته بوصول زملائه أمام المنزل، لَحِقَ بها قبل مغادرتها، طبع قبلةً على خدها، لم يترك يدها، أسبلت ثريا عينيها تلون وجهها مثل التفاحة الحمراء الناضجة.. ضحك تاركًا يدها حتى لا تسقط من غصن شجرتها الربانية. كانت ثريا ترتدي روب أمها.. لمته تحت إبطها أسرعت بالهروب من وجه أبيها، اتجه إلى النافذة، أشار إلى زملائه بالانتظار، دلف إلى الحمام ثم إلى حجرة النوم ارتدى ملابس الخروج، لاحظ مراقبة شريفة لحركاته، تعجب فهو دائمًا يخبرها من أين جاء وإلى أين يذهب.. كما أن اليوم الأحد، أجازته وعلمها بوصول أصحابه اليوم.. نظر إلى المرآة غير مكترث بنظراتها، أشاحت هى الأخرى عن مراقبته، هجم للوم متعلقًا برقبة والده، تركه يعبث في جيب القميص،

أخرج لملوم القرش المخروم، قفز على الأرض مثل عصفور أبو فصادة متجهًا إلى خارج الشقة، فهو يعرف طريقه إلى عم جمعة بائع الحلوى، أشار لطفي من النافذة إلى زملائه، خضع لآخر خطوات خروجه من امرأته شريفة، مررت يدها على القميص تصلح ما عبث به لملوم.. ناولته المنديل الكاكي الميري..تركها لينضم إلى أصحابه بالخارج، كانت شريفة تراقبه من خلال قضبان النافذة ملتصق بها علي وثريا. كان لملوم منهمك في مناوشة زملاء والده.. الأسطى أحمد ملمع الموبليا مثل والده، وعم سعيد الحداد، وربيع جارهم الميكانيكي الذي منح لملوم قرش مخروم. ضحكت شريفة بهرولة لملوم إلى عم جمعة بائع الحلوى.. تابعت شريفة ذهاب زوجها مع زملائه..لم تترك النافذة حتى دلف زوجها وأصحابه الشارع الجانبي، كانت مطمئنة فهى تعرف إلى أين يذهب زوجها مع أصحابه، فهم يفضلون مقهى الخرس.. لايسمعون ولا يتكلمون، إلا بالإشارات.. شيء واحد يقلق لطفي بالمقهى تلك النظرات الحادة المنبعثة من عيون الخرس، خاصة للأغراب أصحاب الألسن الطويلة والآذان الصاغية للقيل والقال، انتبهت شريفة إلى صوت مأمأة بالشارع، أسرعت إلى النافذة ارتعشت فالقادم زميل زوجها عطية الأخرس رفع يده مشيرًا إلى تحت أنفه مع برم أصابعه؟ أجابت عليه بترك يدها اليمنى تلوح إلى الأمام، ويدها الأخرى تحت أنفها مع برم أصابعها هي الأخرى، أخذ عطية الأخرس يرفع يده اليمنى إلى رأسه يلوح بها.. أجابته شريفة برفع يدها على رأسها. كانت نظراته حادة شبيهة بنظرات طائر البوم، كانت ترعب شريفة، أكملت الإشارات بكلتا يديها التي علمها لها لطفي لتخبره بتواجد زوجها بمقهى الخرس هو وأصحابه، أعطى لها ظهره منطلقًا

إلى المقهى، مسحت العرق من على جبهتها وعناء مواجهة عطية الأخرس. جلست على الأريكة بجانب النافذة مثل زوجها والاستمتاع بالنظر إلى شاطئ البحر وتوحده مع السماء .. صافية كانت أم بها غيوم، فالاثنان لا يفترقان عن بعضهما البعض، تعلق للوم برقبتها، لم تتبرم فهى تحب أن يكون للوم رفيقها في هذه الجلسة، لا يفترقان عن بعض مثل السماء والبحر.. جلس على فخذها، أخذت تلقنه كلمات تحرص على ترديدها له منذ صغره، أشارت إلى طريق الكورنيش وقصر الملك:

- هذا طريق مرور الملك فاروق إلى قصر رأس التين داخل العربة الملكية، يجرها الخيول.. العربة مزينة بالذهب والفضة وأعلاها تاج الملك.

- الملك فاروق ينظر من نافذة العربة الملكية ملوحًا بالتحية لي .. وانت تضحك له .. وهو يضحك لي.

- أنت تدخل رأسك بين كتفيك خوفًا من بريق أعين

العبيد السود على جانبي العربة الملكية..

- العبد الأسود يخرج لك لسانه الأحمر وتبرق أسنانه البيضاء ويلمع أنفه المنتفخ.

- أنت تدخل يدك ورأسك في صدري، تختبئ هربًا من نظرات العبد الأسود.

- العربة الذهبية تبتعد عنا، يصحبها العبيد السود.

- الملك فاروق ما زال ينظر لي، وأنت تنظر إليه تضحك له، وهو يختفي بعربته الملكية المزينة بالذهب والفضة.

تنظر إلى لملوم منتصبًا على حافة النافذة، يبدأ بإعادة ما سمع من أمه، يتم التلاوة، تحتضنه وتقبله بقبلاتها التي كانت تشبعه وتغنيه من ذهابه لعم جمعة بائع الحلوى.

خرج شريفة ولملوم من توحدهما مع الملك فاروق على صوت شقيقه على يخبر بوصول أم حلويات. ركب لملوم على كتف أمه وأخذ يردد:

- الملك فاروق ينظر من نافذة العربة الملكية ملوحًا بالتحية لي ولك .. وأنت تضحك له .. وهو يضحك لي ..

- أنت تدخل رأسك داخل كتفيك خوفًا من بريق أعين العبيد السود على جانبي العربة الملكية.

- العبد الأسود يخرج لك لسانه الأحمر وتبرق أسنانه البيضاء.. ويلمع أنفه المنتفخ.

- أنت تدخل رأسك في صدري.. تريد أن تختبئ من العبد الأسود.

- العربات الملكية المزينة بالذهب والفضة تبتعد عنا.. يصحبها العبيد السود..

- الملك فاروق ما زال ينظر لي وأنت تنظر إليه.. وتضحك له .. وهو يضحك لي وهو يختفي بعربته الملكية المزينة بالذهب والفضة.. لم تلقِ أم حلويات التحية على شريفة، أسرعت إلى النافذة تنظر، لم تجد أحدًا، اقتربت من شريفة ولملوم جاحظة عينيها:

- أين الملك فاروق؟.. أين الملك فاروق؟!!

ضحكت شريفة مع ولديها لملوم وعلي، قفز لملوم متجهًا إلى الحمام، ما زالت أم حلويات تعاود النظر من النافذة، لم تقدر شريفة على الوقوف ومواجهة سؤال أم حلويات، سحبتها من ذيل جلبابها..

أجلستها بجانبها..ما زالت أم حلويات تردد السؤال:

- أين الملك فاروق؟

أجابت شريفة وهي مستغرقة في الضحك:

- ملك فاروق إيه!! الملك فاروق ترك مصر منذ سنين .. خلاص ما عادش باشا وما عادش بيه ..كل ده راحت عليه...

تقاطعها أم حلويات:

- طيب ولملوم وكلامه والملك والعبيد السود والسلام والتحية ..أنا لا أفهم شيئًا!!

تعتدل شريفة في جلستها وتجحظ عيناها ويخشن صوتها، تقبض على يد أم حلويات:

- الولد للموم حضر عهد الملك فاروق أكثر من عامان، أحس بشيء يدفعني لأحفظه مشاهد الملك فاروق والعربات الملكية والخيل والعبيد السود، وهو يستمع ويحفظ ويسأل عن المزيد وتكملة مشاهد الملك وأسرة الملك..

تنظر إليها أم حلويات بنظراتٍ تفهمها شريفة وتعرفها من خلال بائعين الأسواق، سحبت أم حلويات يدها وأمالت على أذن شريفة، استجابت لها وبدأت تنصت.. فهى تعرف أم حلويات عندما تمايل وتقترب من رأسها:

- آخر أخبار الست مصيبة أخت ميا بائع الحشيش..هل تعرفين؟

- لا؟

- زوجها يرجع في ساعات متأخرة من الليل.

تلتصق شريفة بأم حلويات تريد المزيد..

- إخوته الصبيان من والده..

- نعم.. يتناوبون عليها كل واحد يوم ..

تدق شريفة على صدرها:

- يا خرابي .. ياخرابي، فهمت الآن الأصوات...

تقاطعها أم حلويات..

- أصوات من؟

تمسك شريفة بيد أم حلويات وتلتصق بها:

- صوت أسمعه خلال ساعات النهار، ولا أعرف أن أميزه.

تقاطعها أم حلويات:

- صوت من أين؟.. ومن؟

تقبض أم حلويات على أسنانها البيضاء، ثم تخرج فكها الأعلى.. تبتعد شريفة خائفة ترتعش:

- حلمك يا امرأة .. واحدة .. واحدة .. ادخلي أسنانك في فمك أنا خائفة.

تضحك أم حلويات .. تبتعد عن شريفة وتخفي أسنانها بيدها.

تكمل شريفة ما سمعته من خلال المنور الداخلي بالشقة.. أصوات لا تقدر أن تميزها؟ أصوات ترتفع ثم تنخفض، ثم ترتفع ثم تنخفض، ثم تختفي بخطوات الأقدام إلى الحمام..

يرتعش جسد أم حلويات.. تضع يدها على فمها والأخرى بين فخذيها:

- يانصيبتي السودا.. ألا يكفيها الأغراب.. يانصيبتي السودا..

تضع كلتا يديها بين فخذيها، ويرتعش جسدها، تنزع شريفة أيدي أم حلويات من بين فخذيها:

- هل عواطفك سائبة لهذه الدرجة؟!!

خيم الصمت عليهن، أشاحت أم حلويات بوجهها، مسحت العرق المتصبب من صدرها ورقبتها، تابعت شريفة خطوات أم حلويات وهى في طريقها إلى باب الشقة..

(٢٠)

عيون جاحظة.. أصوات ممزقة.. إشارات الأصابع تطيح بالهواء.. بالأنف .. وكثيرًا في وجوه بعضهم البعض، جلس لطفي وأصحابه بمقهى الخرس، لا حياة إلا ليد تحمل كوب الشاي.. أفواه تتحدث في هدوء وبصوت خافت، كانوا ملتزمين مثل رواد المقهى، عطية الأخرس، يفعل كما يفعل زملاؤه الخرس.. يتصرف بملء حريته.. صوت المأمأة والإشارات، التي تكاد أن تطيح بعين زملائه، أو بأكواب الشاي على المنضدة، يفرك لطفي أصابعه يحاول إزالة طبقة الجملكة، دهان الموبليا منها ولكن لا فائدة.. قبض ربيع الميكانيكي، أيضا أصابعه يريد التخلص من الطبقة السوداء.. ولكن لافائدة.. تقابلت نظرات ربيع بصديقه لطفي..ضحك ربيع شاركه لطفي بالضحك، ولكن لم يلتزم بآداب مقهى الخرس، فضحكاته كانت قوية

وعالية .. كانت عين عطية الأخرس تراقبهم.. التزم الصمت أحمد الأسترجي وسعيد الحداد، لم يعطى ربيع فرصة لأحد من أصحابه. بدأ يحرك يديه في الهواء لصاحبه عطية الأخرس ولأصحابه أحمد الأسترجي وسعيد الحداد:

- لاحظت أخي لطفي يفرك أصابعه من الجملكة، بعصبية شديدة، أحسستها، فبدأت أنا الآخر أفرك أصابعي أشاركه في همه الذي لا يعرفه غير حامل بصمات مهنته في يده وأصابعه.. الجنس يا إخوة.. نعم الجنس وخاصة الملامسة.. وهي عندي ألذ من مباشرة الجنس.. اللمس محروم منه حتى مع امرأتي أم أولادي، أعمل كل مايحلو لي، إلا اللمس بيدي على جسدها.. أصابع خشنة وسوداء تبتعد بي عن الأماكن التي أحبها وأتلذذ بها، إني محروم مما أحبه وأهواه.. لطفي ذكرني بامرأتي وهو يفرك أصابعه من الجملكة ومحاولة إزالتها.

خفض ربيع يديه فقد أتعبه شرح الأمر لزميله عطية الأخرس الذي قبض على يدي لطفي، أسلم له يديه عسى أن يجد له حلًا لمشكلته هو الآخر، نفر عطية الأخرس من يدي لطفي الذى بدأ هو الآخر البوح بهمه:

- نعم عندي مشكلة أخى ربيع، كل حديثه صدق وعذاب مشاعره وحرمانه من أقرب الناس إليه والتلذذ بما يهوى ويحب وهذا أمل أود الوصول إليه، ربيع عنده حق، ولكن أنا زودت الطين بلة، مثل ما يقولوا في المثل في يوم كنت مشتاقًا للمس حتى وصل الأمر أن ذهبت إلى منزل المعلمة فلة الراقصة، بحارة اليهود وأنا أعاهد نفسي أن لا أفعل شيئًا

يغضب، كل ما أريده هو الملامسة بيدي لكل ما أحبه وأهواه.. تناولت كوب الشاي، كان من نصيبي في وجهٍ مثل القمر وجسم غصن البان، عود ملفوف وشعر أسود ناعم..كلها جميلة مثل الفل..كان همي في شيء واحد..أن ألمس وأتحسس..دفعت المبلغ المطلوب، دخلت مع الغصن الملفوف بالغرفة، أخفيت بكل ما أستطيع أصابعي وما تحمل خشونة مثل الصنفرة الحدادي، أمرتها أن تطفئ الأنوار.. كانت مطيعة لما أريد، بدأت تستجيب لرغباتي، شعرت بخشونة أصابعي.. هبت واقفةً.. أضاءت الأنوار .. نظرت إلى أصابعي ثم إلى جسدها.. لطمتني على وجهى وصاحت:

- البضاعة ليست لك وحدك .. اذهب اتجوز ولا أتنيل على نفسك.

نظر لطفي إلى أصحابه كانوا مستغرقين في متابعته سقط عطية الأخرس بمقعده على الأرض من شدة الضحك، انتبه أصحابه الخرس إليه التفوا حول لطفي وأصحابه كانت نظراتهم مثل طائر البوم، قبض أحدهم على رقبة لطفي، هجم عليه عطية الأخرس ينقذ صاحبه لطفي من يده..شرح الموقف وما حمل من سوء الفهم ..انصرف زملاؤه الخرس، مسح لطفي العرق من على جبهته، أشار على أصحابه بالسلام، أعطى لهم ظهره، ترك قدميه تقوده إلى الطريق.

(٢١)

جلست شريفة أمام النافذة المطلة على شاطئ الأنفوشي تتأمل المصطافين، فهم يأتون من جميع أطراف الأسكندرية، خاصة المناطق الشعبية وحبهم لشاطئ الأنفوشي الشعبي المشهور بشاطئ «ستانلي ماعز» فكما هو مزدحم في شهور الصيف بالمصطافين مزدحم في شهور الشتاء، يرتاده العربجية، أصحاب الخيول والحمير والبغال للسباحة وإمتاع خيولهم وحميرهم وبغالهم؛ ليأخذوا بعض الراحة من مشاق الحمل والضرب بالكرباج والعصا الغليظة، وفك أسرهم من جر العربات ومن اللجام والحديد وغطاء جوانب العيون.. كان استغرابها من التفاهم والود والصداقة والمحبة بين الرجل العربجي والحيوان وسط مياه البحر.. ولا ترى اختلافًا عن شهور الصيف، إلا في مشاهد بين رجل يلهو في الماء والإمساك بنهد

امرأة أو بمؤخرتها ثم يتلو كلمات الاعتذار لهذه المرأة أو تلك الصبية خافضًا رأسه أمام النظرات القاسية بالعتاب عما فعل مبتعدًا؛ ليلحق بجسد آخر ..عسى أن يتجاوب معه في اللمسات تحت الماء.. للتتوالى حلقات المداعبة وهذا ما كانت تحبه شريفة من مشاهدته أسبوعيًا أيام الأحد والجمعة.. ومشاهدة ختامها ونهايتها التي كانت دائمًا تنتهي بالعراك والمشاجرة وينقلب شاطئ الأنفوشي لساحة قتال وتتحول أيدى المظلات إلى آلة فتاكة من الممكن أن تنهي حياة من تطوله، فإذا كانت ضعيفة مترددة فينتهي الموقف إلى بعض الغرز الطبية في الرأس مع فقدان لحلل وأواني الطهي بما تحمل من الكرنب المحشي بالأرز والمميز بالرائحة النفاذة، التي تسيطر على معدة متناولها بالساعات الطوال ليخرج روائحه.. وتناثر السلطة والبطاطس المقلية المحمرة وتلون رمال الشاطئ بما وقع عليها من قطع البطيخ مع سيلان برادات الشاي لتكتمل صورة توحد العراك مع خليط رمال الشاطئ وما يظهر به من خليط الدماء والبطيخ وقتامة الشاي، ثم يهدأ الشاطئ ويبدأ البحث ولملمة ما تناثر من حلل وأوني وبرادات الشاي.. ابتسمت شريفة تذكرت هذه المرأة وهى تجري لاهثةً وراء زوجها قابضًا على يد المظلة للاشتراك في العراك ومؤازرة أصحابه.. تصرخ بأعلى صوتها:

- لباسي .. لباسي...

وهوعالق بيد المظلة في يد زوجها، كالعلم المنتصر يتوقف العراك بين الطرفين لستر لباس المرأة.

تنتهى المعركة بابتسامات وتصافح، ثم الجلوس للتصالح مع تناول الشاي ولا مانع من إحضار النارجيلة وتناوب أنفاس الدخان، طرق على باب الشقة، أخرج شريفة من تمتعها بلباس المرأة وعراك المظلات.. اتجهت في خطوات متثاقلة، فالوقت ما زال مبكرًا لحضور أحد، نظرت من خلال شقوق الباب، كان الواقف صديق زوجها عم رشاد وبناته اطمأنت فما زال استمتاعها بالشاطئ متصلًا، ولم ينقطع، فالزوار حضروا لأخذ مظلة الشاطئ، رحبت بهم من خلال شقوق الباب، أحضرت المظلة وبعض المقاعد الخشبية، كانت مطمئنة بعدم فتح باب الشقة لعم رشاد وبناته، راجعت المتطلبات ،لملمت شعرها الطويل الأسود الناعم ،فتحت الباب لترحب بزوار الشاطئ، تناول عم رشاد المظلة وتوزيع مقاعد الشاطئ على بناته، أعطى يد المظلة إلى ابنته السمينة الكبيرة المنتفخة الصدر والأرداف، لم تتمالك شريفة كتم ضحكاتها وتخيلها بتعلق لباس ابنته بيد المظلة وكم سيكون كبيرًا وعظيمًا وواضحًا للناظرين وهو يرفرف في الهواء كالعلم المنتصر، نظر عم رشاد إليها مستغربًا من هذه الضحكات، جحظت عيناه وانتفخت أوداجه وتلون وجهه وقفزت أذنه إلى أعلى رأسه لم تتوقف شريفة عن الضحك، بل ارتفعت ضحكاتها أكثر. ازداد عم رشاد غيظًا، فقد شاركها بالضحك بناته وتعالت الضحكات، لم يتمالك عم رشاد شدّ أعصابه، انفلتت ضحكاته مع بناته وشريفة .. «مع أن الضحك بدون سبب قلة أدب» تذكرت شريفة هذا المثل، سحب بناته في اتجاه الشاطئ وهو يلتفت إلى شريفة ويضحك وشريفة تبادله الضحك، أغلقت باب الشقة اتجهت إلى النافذة.. كانت لا تدري لماذا تحب هذه الجلسة والنظر

دائمًا إلى الشاطئ وأمواج البحر.. هل لمتابعة أحوال الشاطئ وما يحمل من مشاهد باكية أكثر من ضاحكة؟! قطبت حاجبيها.. فكم فقد من أحباب وأصحاب بين أمواج البحر!!.. حاولت التذكر منذ متى لم تطأ شاطئ الأنفوشي؟!!.. فالشاطئ يأتي إليه من كل حدب.. تذكرت قول جارتها أم حلويات أن الشاطئ وهذه الرمال وأمواجه الزرقاء الصافية محرومين منه في شهور الصيف، لا يعرفون الشاطئ إلا في شهور الشتاء .. فهم على ميعاد بأربعاء سيدنا أيوب وتقديسهم لهذا اليوم والاستحمام والاستمتاع بماء البحر.. الجميع يلهو ويستحم .. المريض تأسيًا بسيدنا أيوب والمعافي ليزداد قوة وعافية، خطر عليها لباس استحمام زوجها... لطفي وتمتعها بالنظر إليه وهو يقفز بين البحر والرمال وكثيرًا ما كان يقفز عليها يصب عليها ماء حبه الدافئ.. هرولت إلى خزانة الملابس بغرفة النوم. بحثت بين طيات الملابس على لباس بحر لطفي أخذته في صدرها، نظرت إلى جسدها بمرآة سراحة غرفة النوم ما زلن أردافها تحمل الأنوثة. مسحت بيديها فوق نهديها ما زلن يحتفظن بالثبات فوق صدرها.

أرادت أن تكمل رحلتها مع جسدها الأبيض الغض، أغلقت باب غرفة النوم بدأت في خلع جلبابها أمام المرآة .. سقط تحت قدميها .. رفعت قميص النوم إلى كتفيها .. شعرت بنشوى تعتريها في اكتمال احتواء مشاهد جسدها الملتهب..

أسقطت لباس عفتها بين قدميها، أخرجت نهديها من جرابها، أسدل قميص النوم المشهد بستر جسدها، رفعته ولكن ليفارق جسدها لتقف عارية أمام

المرآة التفت حول نفسها ومراقبة جسدها كله.. من الخلف من الأمام بين ساقيها خلعت الإيشارب من رأسها، هبط الشعر الأسود الناعم كأمواج البحر المتراكم تحسسته بيدها، أمالت براسها بين ساقيها سحبت الشعر الأسود بيدها بدأت خطوات الحكى مع صرتها... دارت بها غرفة النوم، هربت أعصابها، انسحبت نظراتها تكاد أن تلتصق بحاجبيها.. مدت يدها المرتعشة باللباس بحر زوجها دفسته بين فخذيها.. ارتمت على الفراش، ليدور مع دوران غرفة النوم...أفاقت شريفة من غفوتها على دقات باب الشقة أسرعت بارتداء الجلباب، رفصت بقدميها الملابس الداخلية تحت الفراش، ما زال الدق على الباب مستمرًا .. وضعت لباس بحر زوجها تحت وسادة الفراش، عصبت بالإيشارب، أدارت نظراتها بالغرفة اطمأنت فلا يوجد شيء يلفت الانتباه، لم تنسَ أن تنظر إلى المرآة وهى في طريقها إلى باب الشقة.. كانت مسرورة بهدوء فوران جسدها الغض كما هدأت الدقات على باب الشقة، شاهدت من وراء الشقوق، أم المغربي من عائلة أمها المحترمة رحبت بالأحضان التي ما زالت ساخنة في صدرها شعرت أم المغربي بسخونة جسد شريفة.. فحصت وجهها، أزاحت ذيل فستان شريفة إلى أعلى حاولت هى الأخرى الابتعاد عن يد الزائرة ولكن لا فائدة، غير أن تضم ساقيها حتى لا تعبث بهما أم المغربي. نجحت من الإفلات من أيدي المرأة العابثة بما لا تملك، سحبت شريفة أم المغربي إلى حجرة النوم ... جلس الاثنان مع صمت البسمات على حافة الفراش، تربعت أم المغربي.. بدأت تنظر إلى وجه شريفة التي كانت مسلطة كل نظراتها على لباس بحر زوجها لطفي، المخبأ بالقرب من أيدي أم المغربي التي بطشت

ليقع اللباس في يدها، أطلقت صليل ضحكاتها المشهورة بها بين نساء العائلة، شاركتها شريفة الضحك بإخراج قميص نومها ثم لباسها من تحت الفراش، فرت شريفة من أيدي أم المغربي في زاوية الحجرة.. أكملت ستر جسدها، لم تتمالك أم المغربي، وضعت وجهها بين كفيها، أخذت في البكاء، ضمتها شريفة إلى صدرها فهي تعرف مدى حنين أم المغربي لهذا الفراش، فهى مطلقة منذ سنوات قليلة، أفاضت أم المغربي إلى شريفة بمدى حنينها لهزّات الفراش وفركشة أغطيته اللزجة المبتلة، لم تدري شريفة كيف تبدأ الحديث معها بعد هذه الشقاوة ونهايتها الحزينة، غير أن تترك الحجرة والذهاب إلى المطبخ لإعداد أكواب الشاي....

(٢٢)

الأنفوشي!! حبيبة لطفي لايقدر أهلها أن يبتعدوا عنها صيفًا أم شتاءً ..صيف مصطافين شتاء زوار يعشقون أمواجها الهائجة على وجوه أهلها.. لايغضبون، لا يبتعدون، يتبركون ويداعبون هذه الأمواج ويلهون معها يتنسمون رائحة اليود كما يتنسمون رائحة الفل والياسمين لطم رذاذ الأمواج وجه لطفي، تكحلت عينيه بما يحب، اقترب أكثر من شاطئ البحر عسى أن يأخذ لطمة أخرى فإلحاح النزول في الماء والسباحة يدفعه أن يلقى بنفسه في هذا اليم. تراجع لتكملة مشواره عرج إلى مقهى القويري، ظهرت ملامح صيدلية الإسعاف، راجع ما يحمل من نقود.. فدواء حماته أم صابر سيكون غاليًا، هكذا قال له الطبيب بعد الكشف عليها، كان يريد أن يقدم لأم صابر أقصى ما يستطيع من كل شيء..الوقت..الرعاية الدواء...

خرج من صيدلية الإسعاف بالدواء... توجّه إلى السماء بالحمد، فكم كان الدكتور الصيدلي متعاونًا معه متفاهمًا بعد أن عرف حكاية المريضة، وإهمال ابنها صابر لها، والتوصية بالرجوع إليه في أي وقت، لأخذ ما يحتاج من أدوية للسيدة حماته، ولا ينعى أي هم في دفع النقود فأصحاب الخير كثيرين.. اقترب من ناصية شارع الحجاري، لمح شقيقته عايدة قادمة نحوه، أراد أن يتجاهلها في هذا الموقف ولا ترى ما يحمل من دواء، همس:

- آتاك الموت.. يا تارك الصلاة..

لن يخلص من تطفلها ونظراتها إليه، من أخمص قدميه حتى رأسه، بدأ العرق يملأ جبهته متسللًا إلى حاجبيه، أراد الدخول بمسجد الحجاري بجانبه، تراجع أمام شقيقته، أغلقت الطريق بجسدها الممتلئ.. اهتزت الأرض تحت أقدامه .. يداه ترتعشان ..نظرت إلى ما يحمل من دواء، بعد الفشل في إخفائه، أخبرها بمرض حماته أم صابر .. مطت شفتيها .. قبضت على قميصه الخشن:

- إلى متى تتنازل ياسي لطفي وترضى بالتعاسة والسيدة شريفة وأولادها في عزّ وعيشةٍ رغدةٍ ولا أولاد البشوات، وأنت مهتك الثياب.. بنطال عسكر.. قميص عبك.. ألا يكفيك ما قدمت.. خبز بالنوتة .. وزيت وسكر بالشهر، ولولا تدخلي عند عم جابر صاحب محل الخضروات والفواكه وضماني لك عنده لأصبحت أنت والسيدة شريفة وأولادك نائمين من غير عشاء..

دارت الأرض تحت أقدام لطفي.. ليس من كلام شقيقته ولكن لانتباه المارة بالطريق لهذا الحديث وهذا العتاب الجارح، تذكر قول إمام المسجد: «النصيحة على الملأ فضيحة» .. أخرج منديله الكاكي، بدأ يمسح العرق من على جبهته وعينيه، خطفت عايدة المنديل من يده:

- حتى المنديل منديل عسكر!!.. يا رجل كفاية تنازل ومهانة وبهدلة .. كفاية .. انظر لنفسك مرة واحدة، تراجع لطفي دون أن ينبس بكلمة متجهًا إلى أسرته وحماته، غير عابئ بنظراتِ شقيقته عايدة وذهاب كلماتها أدراج الرياح، فهو راضٍ بما يفعل من خير غيرُ مهتم حتى بقطعة القماش المرقعة بين فخذي بنطاله، تسميها امرأته بالسمكة لا تظهر إلا في موضع واحد، عند سجوده في الصلاة تظهر كعين الشمس الساطعة في عز النهار، لكن لا يراها إلا العابدون الساجدون أمثاله داخل المسجد، نظر إلى حذائه المرقع بقطعة الجلد اللوزة كما يسميها عم يوسف الإسكافي صاحب العين الواحدة المشهور في شارع جودة بالأنفوشي منقذ الأسر الفقيرة من السير حفاة وإتقانه صناعة حذاء "صندل الأولاد أبو صوبع" من إطارات، السيارات أطفال الأنفوشي يستعملون صندل عم يوسف الإسكافي في شهور الصيف.. اقترب من المنزل، استقبله ابنه علي، اختطف الدواء من يده مهر ولا إلى أمه. كانت جدته أم صابر راقدة بالفراش، رفعت يدها إلى لطفي، لم يفهم ماذا تريد. لاتقدر على إخراج الكلمات، كررت الإشارات بيدها، نظر لطفي إلى شريفة، لم تفهم هي الأخرى ماذا تريد أمها من لطفي، أمسك ابنه على، يد جدته، أخذ يهزها:

- جدتي تريد خلع الذهب من يدها.

بركت شريفة بجانب أم صابر وهى تبكي..

ما زالت أم صابر تهزُّ يدها أمام لطفي.. دقّ بيديه على رأسه:

- أنا ما أزال بصحتي وعملي بالنهار والليل على خير ما يرام.. علاوةً على تعاون مدير الصيدلية ولن يتأخر في صرف الدواء..

أشاحت أم صابر بالنظر إلى لطفي، ضمت علي وأمه إلى صدرها، رفعت يدها اليمنى مشيرة بأصبع السبابة إلى السماء، انتبه لطفي لموقف حماته، خرّ على ركبتيه بجانبها، فهم أن حماته ستفارق الحياة أقرب مما كان يتصور..

(٢٣)

مرت على شريفة أيام الحزن بفراق أمها وغياب الخالة نرجس وذهاب لطفي كثيرًا مأموريات خارج الإسكندرية.. كان العزاء الوحيد لشريفة هو الذهاب إلى حدائق قصر رأس التين، بجوار «الأنتيكة» المقابر الرومانية، فالثورة اهتمت بإنشاء الحدائق العامة والمنتزهات لجميع طوائف الشعب، يخرج إلى الحدائق أهل الأنفوشي عند غروب الشمس وحتى منتصف الليل، تمتلئ الحدائق، فتزحف الأسر بالجلوس على كورنيش البحر، فيمتلئ فيزحف بقية أهل الأنفوشي إلى رمال الشاطئ حتى مشارف قلعة قايتباي...همسات وأحاديث ونظرات ومشاحنات ومداخلات بائع الترمس والفول المقلي بالشطة والليمون وماسحي الأحذية وبائعي الذرة المشوية.

كانت شريفة مستعدة لإشباع نظرات ثريا وعلي ولملوم وصدهم عن فتح جوذلان النقود وبعثرة قروشها القليلة على بائعي الحدائق والكورنيش سندوتشات الجبنة القريش والبطاطس المسلوقة الصغيرة مثل حبات الليمون والملح المخلوط بالفلفل الأسود الناعم. كان شيء يقلق جوذلان نقود شريفة.. بسكوتة البوظة المثلجة فهى تتمناها قبل أولادها..

بدأ الهواء البارد يتسرب إلى جسد شريفة رغم جلوسها بجانب نافورة المياه المعطلة والتي لم تقدر الثورة على إزالتها فهى من الآثار الملكية الثابتة في مكانها المتوحدة مع أهل الأنفوشي وقصر الملك، تحنُّ إليها تجلس بجوارها وتحت ظلها.

كان لملوم يمسك بطرف الحبل وعلي يسمك بالطرف الآخر، أما ثريا فعليها القفز بين هزات الحبل مع هزات فستانها.. عين شريفة تراقب ثريا وهزاتها وجسمها الأبيض الغض.

اقترب لملوم من أمه تصك أسنانه من شدة برودة الهواء، أشارت إلى علي وثريا، فقد حان وقت العودة إلى المنزل، لمَّ لملوم الملاءة، جمع علي وثريا ما تبقى من طعام، وضعته شريفة بالحقيبة، أمسك لملوم بذيل فستان أمه،قبض علي بيد ثريا، بدأت خطوات وداع حدائق رأس التين وكورنيش الأنفوشي، أشارت شريفة على قصر أمام الحدائق، لم يتأخر لملوم في الرد:

- هذا قصر أم البحرية..

سعدت شريفة بإجابة للوم.. شاركت ثريا فرحة أمها.. نفض علي يده من يد ثريا مهرولًا إلى داخل المنزل..

(٢٤)

شاطئ الأنفوشي يودع زواره .. هواء مُحتل برمال الشاطئ، يطرح على الأغراب، عسى أن يرحلوا فيكفي ما أصابه..

كانت تلك نظرة لطفي إلى شاطئ الأنفوشي ومشاهدة أحواله وتقلباته من خلال قضبان النافذة، فاليوم الأحد، اقتربت الساعة من السادسة مساءً، لن يرحل من جلسته والخروج لمقابلة أصحابه في مقهى الخرس، اعتادوا على غيابه في آخر كل شهر، لم يحاولوا إجباره على الجلوس معهم بالمقهى وإزاحته عن المشاركة في دفع الحساب، تناول كوب الشاي الساخن، نظر إلى علي يقرأ وثريا تصحح له الكلمات.. كان المنزل هادئًا.. شريفة ولملوم بالخارج، فاليوم الأحد تستعد عائلة جرمانية جارتهم لزفاف إبنتها نعيمة ومهمة شريفة القيام بالواجب مع نعيمة من تنظيف للجسد وحكّ للأقدام وقصّ للأظافر وإزالة العماص المتراكم على حافتي أعين نعيمة

ونتفٍ للشارب.. نظر لطفي إلى ابنته ثريا، بدأت الدخول في بوابة الأنوثة.. سرح في حال نعيمة وموافقة أهلها من الزواج بميكانيكي يكبرها بعشرات السنين .. قبلوا الزواج مع تنحية فارق السن أمام نعيمة وصغر جسدها وظهرها المحدب. أصحابها يطلقون عليها «الحدباء» كانت مميزة بجسدها الأبيض وشعرها الكستنائي المتماوج مع ضوء الشمس.. هذه المشهيات كانت كفيلة بقذف الخطيب الميكانيكي مقدمًا حنكته الموتورية وجيوبه المنتفخة بالمال وعمارته على كورنيش شاطئ كليوباترا وعائلته الثرية التي باركت هذه العروس المحدبة الظهر المكحلة بالعماص. انتفض لطفي على صوت فرقعة قوية آتية من داخل الحمام، ارتمت ثريا وعلي في صدره، أنطلق صوت صراخ من الحمام، حاول زحزحة أقدامه، تقدّم بخطواتٍ ثقيلةٍ، ظهر على باب الحمام عم بيومي وامرأته سنية جيرانهم في المنزل الملاصق.. لا يرى منهما إلا أعينهم .. كانت أجسادهم يكسوها الغبار والأتربة، أمسك لطفي بيد جارته سنية، أخرجها من بين ركام الجدار المنهار، أشار إلى ثريا بإحضار جلباب لستر جسد عم بيومى، ضحك علي، هزّ يد لطفي مشيرًا إلى الحمام:

- الآن عندنا حمامان وليس حمامًا واحدًا.. حمام عم بيومى ... وحمامنا!!

جلس لطفي على درجات سلم مسجد المرسى أبي العباس بعد صلاة العشاء وغلق المسجد أبوابه ترحم على خاله إبراهيم وعلى من فاته من أحباب حتى حبيبته شريفة..عراك وخصام .. لا تريد أن تمكث في شقة الأنفوشي خوفا على أولادها من سقوط جدران المنزل كما سقط جدار الحمام ..

حاول إقناعها بقلة الحيلة والمال والبحث عن شقة أخرى لا فائدة فهى.. مصرة على الرحيل من الأنفوشي .. لم ينتبه لطفي لتلك المرأة،وضعت في حجره شقة من الخبز .. نظر إلى الشقة.. كان بها فول نابت وقطع من اللحم المسلوق.. حسم موقفه أمام اللحم المسلوق حاول اللحاق بالمرأة ورد شقة الخبز .. لم يتمكن باللحاق بالسيارة .. عاد إلى مكانه على درجات سلم المرسى أبو العباس.. التهم شقة الخبز، أسند رأسه على الحائط، بدأ إلحاح احتسائه لكوب الشاي .. أين يجد ثمن كوب الشاي؟.. حتى عند شريفة لا يوجد القليل من الشاي.. هبّت نصائح خاله إبراهيم .. جلسته لا تفيد .. حتى المسجد أغلق أبوابه ولا يوجد من يساعده في الخلاص من إلحاح امرأته بالرحيل من الأنفوشي والبحث عن شقة أخرى، هبط درجات سلم المرسي أبي العباس.. عاد للصعود، أعاد الصعود والهبوط ، التف أبناء الشحاذين حوله، أمرهم بالجلوس على درجات السلم، فتح أزرار قميصه العبك ذي اللون البيج المميز، ظهرت قسمات الفانلة المقطعة، تخترقها شعيرات صدره الكثيفة، رفع يده اليمنى إلى السماء، أشار باليسرى إلى قلعة قايتباي العتيقة الصامدة بين الأمواج:

- أنا العبد الفقير لطفي .. الشريفة زوجتى شريفة كانت لطيفة وحبيبة وجميلة .. أهدتني للموم وثريا وعلي..أولادي أحبابي .. أطعمهم من حلال .. كسوتهم أحسن ثياب .. أحسن علام أعلمهم .. أفضل طعام أطعمهم .. أشرفه وأحسنه الحلال .. وأنا لا أرزق إلا من الحلال.

تزاحم حوله وعلى درجات سلم المرسى أبي العباس الشحاذين، قال أحدهم:

أكمل يا سيدي أكمل!! أمتعنا بكلامك ياسيدى أمتعنا!!

قطع لطفي قطعة من الفانلة المقطعة، ظهر الكثير من الشعر:

كل عمري وحياتي في الحلال، أسمع كلام الشيخ الإمام وأَصِلُ الأرحام وأهلي قلوبهم حجر وأعينهم نار وحطب..لا شفقة ولا رحمة، أنا أخوهم وابن عمهم وخالهم وزوج عمتهم، ما ذنب أَكُفّي الملطخة بالجملكة من مهنتي؟!!.. ما ذنبى بفقري وغلبي وقلة حيلتي؟!!

أ ليست تلك موازين الأرض؟! لا أعرف قسم الشرطة ولا أعرف المشاكسة ولا المعايرة، أعيش في حالي أُربي أولادي .. ما ذنب أولادي؟.. هل الفقر عيب؟ ابتعد أهلي عني، لم يرحموا أولادي. أخى سالم يمر بالأنفوشي أمام أولادي ولا ينظر حتى إلى نافذة منزلي!! يصطدم بابني للموم ولا حتى جبر خاطر ولا سلام!! قطع قطعة أخرى من الفانلة المقطعة، ظهر صدره الملطخ بالشعر الأسود الكثيف.

أعمل ليل ونهار.

قاطعته شحاذة من الشحاذين الدراويش:

وامرأتك الشريفة شريفة العفيفة اللطيفة الجميلة؟

لم ينظر لطفي إلى تلك المرأة، صورة امرأته شريفة تمتلكه امتلاك الأسير المقيد بالسلاسل والجنازير خلع القميص العبك.. أكمل تمزيق الفانلة،

تساقطت على الأرض، ازدحمت أيدي أولاد الشحاذين على قطع الفانلة.. كان العرق يتصبب من جسد لطفي، حملق في دائرة الشحاذين حوله، بحث عن صاحبة السؤال:

- شريفة الجميلة العفيفة .. الآن طنانة.. زنانة..سعرانة ..

قاطعه أولاد الشحاذين:

- طنانة .. زنانة ... سعرانة..

هبط درجات سلم مسجد المرسي أبي العباس متجهًا إلى شاطئ البحر.. ما زال الشحاذين وأولادهم يسيرون خلفه.. صعد رصيف الكورنيش .. التفت إليهم..

حاصرته المرأة الشحاذة بتكرار السؤال:

- وامرأتك شريفة الشريفة العفيفة الجميلة؟!!

حملق لطفي إليها، أشار بيده إلى قصر رأس التين وشاطئ الأنفوشي:

- لن أتركها من أجل أولادى ..ثريا وعلى ولملوم..سأرحل وأعود .. سأرحل وأعود ..

خلع بنطاله ثم قفز بين الأمواج.

رقم الايداع / ٢٢٠٨ / ٢٠١٤

الترقيم الدولى / ٧ - ٥٩ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

01144595757

سالم ـ شقيقه صاحب الحذاء ـ كان يخفى إبتسامته وقد فهم حركاته بمحاولته إخفاء قدميه تحت المقعد، تمت مراسم الزواج، وانطلقت الزغاريد من النساء، بدأ العرق يتساقط فى ظهره متجها إلى مؤخرته، أمسك بيد عروسه فائزًا بها والتى ستكون له سندًا فى شقائه فى هذه الحياة، تقدمت أمامهم الراقصة تزفهم، سلَّط بصره على جسدها الممتلئ لحمًا وشحمًا وأنوثة تفوح من نهديها وشفتيها الغليظتين .. كل شئ كان يهتز بجسدها، وتعجب على قناعتها مقابل ما تبعثر من خصوصيتها على الجميع بنصف ريال فضة!

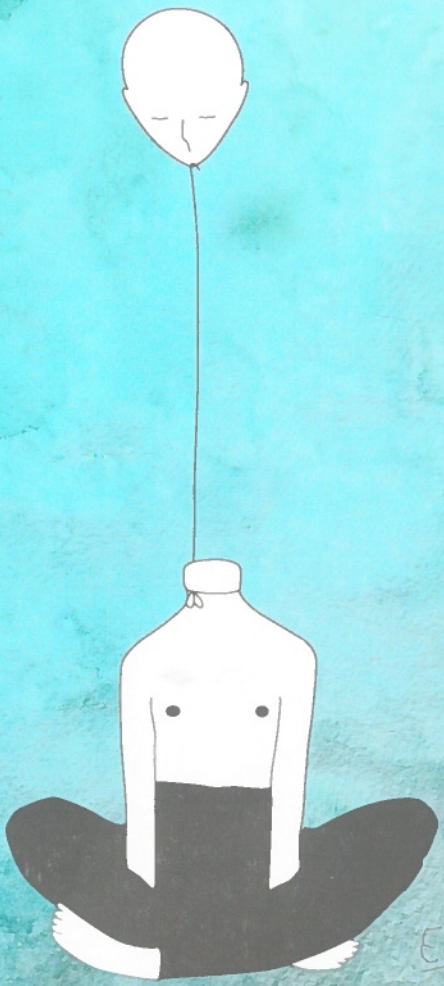

تصميم الغلاف :سارة سليمان